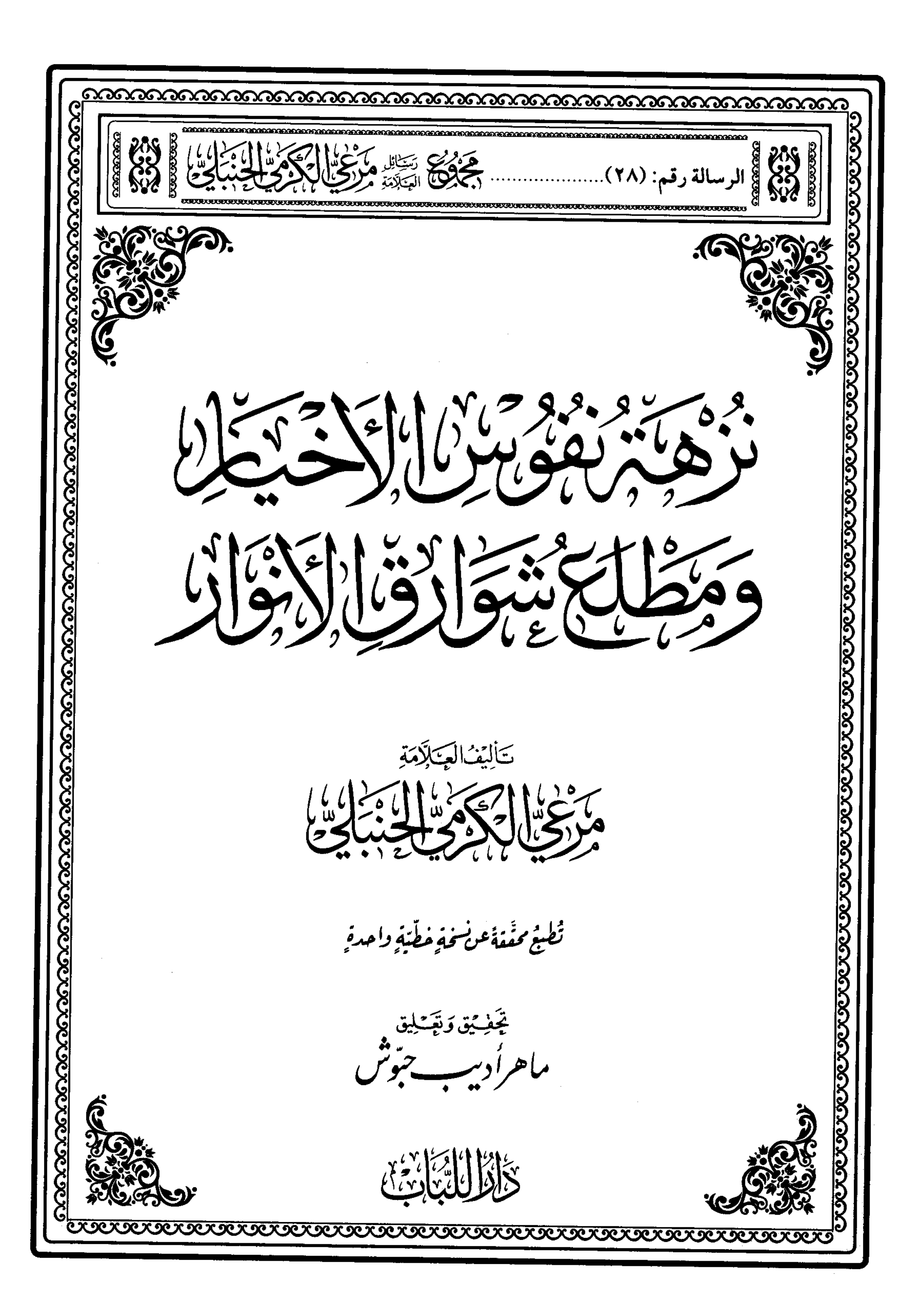


مجموع رسائل العلامة مرعي الكرمي الحنبلي
الرسالة رقم: (٢٨)

نزهة نفوس الأخيار ومطلع شوارق الأنوار

تأليف العلامة
مرعي الكرمي الحنبلي

تطبع محققة عن نسخة خطية واحدة

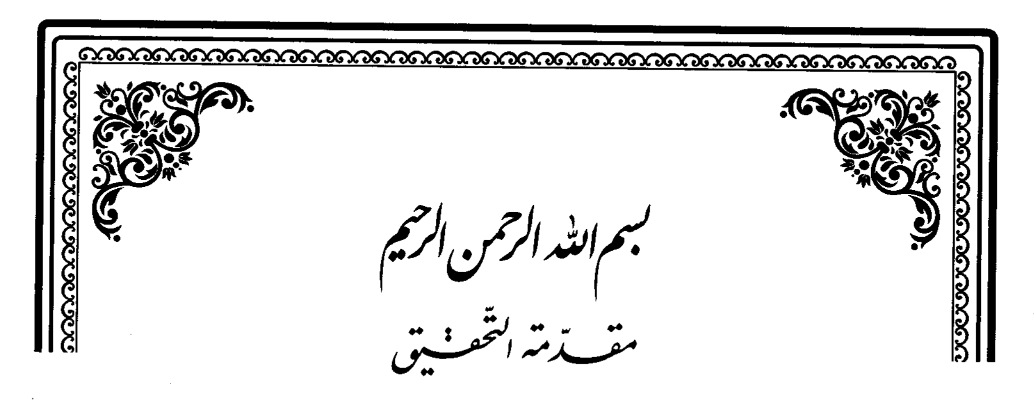
تحقيق وتعليق
ماهر أديب حبوش

دار اللباب

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم
قال العبد الفقير إلى الله تعالى مرعي بن يوسف الحنبلي
الحمد لله الذي تفرد بالوحدانية، وتقدس بالألوهية
وتنزه عن الكيفية فلا تحيط به العقول ولا تدركه الظنون
تاهت عقول ذوي الألباب في عظيم ذاته وحارت بصائر
أولي الأبصار في ذرى صفاته واحتجب عن الأبصار فلا
وصول إليه لشيء من مخلوقاته سبحان ربك رب العزة
عما يصفون أبدع العرش بباهر قدرته واخترع ما فيه بباهر
حكمته وسخر الشمس والقمر والنجوم بمشيئته وجعل الظلمات
والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، وسع كرسيه
السموات والأرض وفاقهما في الطول والعرض وهو بالنسبة
للعرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة أإله مع الله تعالى الله
عما يشركون أحمده سبحانه على كامل من نعم ومنن وأشكره
على ما ظهر منها وبطن وأسأله أن يدفع عنا كل هم وحزن
وأن يجعلنا من عباده الذين هم به عارفون وأشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد مخلص يشهد
بإخلاصه المخلصون وأشهد أن محمدا عبده ورسوله نبيه
المجتبى ورسوله المرتضى من كل الخلائق به يتوسلون وإليه
في القيامة يهرعون صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأ
الأعلام ومصابيح الظلام الذين كانوا يسارعون في الخيرات
وهم لها سابقون وسلم تسليما وبعد فهذه فوائد

تقر بها العيون وفرائد يسر بها المحب وإشارات يلتذ
بمعانيها معانيها وتقريرات يطمئن بما فيها موافيها مشتملة
على ذكر القلم واللوح والعرش وصفته والكرسي وحقيقته
والأرض والسموات والشمس والقمر والنجوم المسخرات
معتمدا في ذلك ما اعتمده الأئمة الأعلام وعلماء الإسلام في
الأئمة الأعلام وعلماء الإسلام من الأئمة المحدثين والعلما
المفسرين راجيا دعوة عبد صالح حين يمر عليها متفكرا وينظر
إليها متذكرا جعلها الله تعالى عروسا حسنا مجلوة إليها
تاشمنلي بلا فتر نيتها في موقف يحتاج فيه إلى الماء فأقول
وعلى الله قصد السبيل ومنه أرجو الوصول إلى كل سبيل
وسميته نزهة نفوس الأخيار ومطلع مشارق الأنوار
[illegible] اعلم وفقك الله تعالى أن الباري جل شأنه وعز
وتقدست أسماؤه موجود فرد حي سميع بصير قدير
ليس بعرض ولا جسم ولا جوهر ولا مصور ولا محدود ولا
متبعض ولا متجز ولا مركب ولا متناه لا يوصف بالماهية
ولا بالكيفية ولا يتمكن في مكان ولا يجري عليه زمان ولا
يشبهه شيء ولا يخرج عن علمه وقدرته شيء وهو تعالى خالق
لأفعال العباد من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان فكل
أفعالهم بإرادته ومشيئته وحكمه وقضيته لا تدركه الأ
ولا تحيط به العقول ليس قبله شيء ولا بعده هو الأول
والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم [illegible] يمعن

المكتبة الأزهرية (ز)



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ للهِ الذي نَزَّلَ الفُرقانَ، وعلَّم القُرآنَ، ومَنَّ علينا بالإيمان، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ الخَلقِ، وسَنَدِ الحقِّ، وعلى آلِه الكِرامِ، وأصحابِه الفِخامِ.

وبعدُ:

فإنَّ القلمَ واللوحَ والعرشَ والكرسيَّ وغيرَها هي مِن المسائلِ التي كثُر فيها الكلام، وتاهَتْ فيها أقلام، وضَلَّ فيها أقوام، ما بينَ تعطيلٍ وتجسيمٍ، والبحثُ فيها يحتاجُ إلى سَعةِ العِلْم وصحَّةِ النقل، وسلامةِ العقيدةِ وقوَّةِ العقل، ويتطلَّبُ إتقانَ صناعةِ التَّحرير، وبلاغةَ القولِ وفصاحةَ التَّعبير، وأنْ يكونَ الذي يخوضُ فيه متَّبعاً للسنَّةِ الصَّحيحة، لا لتزويراتِ العقولِ القبيحة، مجتنِباً للغرائبِ والإسرائيليات، والأخبارِ التَّالفات، وكلامِ المبتدِعِينَ وأصحابِ المبالَغات، ومن هنا رامَ العلَّامةُ مَرْعيُّ بنُ يوسفَ الحنبليُّ المقدسيُّ، الذي أراد أنْ لا يَدَعَ باباً من أبوابِ العلمِ إلا ويَطْرقُه، ولا مشكلةً من المشاكلِ التي استَغْلَقتْ على النَّاسِ إلا حلَّها، ولا مُعْضلةً مما استَعْصَتْ على الباحِثين إلا فلَّها، أنْ يكتبَ هذه الرِّسالة الموجزةَ في مبناها، لكنها عظيمةُ الفوائدِ كثيرةُ العوائدِ، فقال معرِّفا بها: فهذه فوائدُ تَقَرُّ بها العُيون، وفَرائدُ يُسرُّ بها المحبوب، وإشاراتٌ يَلتذُّ بمَعانِيْها مُعايِنُها، وتحريراتٌ يطمئنُّ بما فيها مُوافِيها، مشتملةٌ على ذِكر القلَمِ واللَّوحِ، والعَرشِ وصفتِه، والكرسيِّ وحقيقتِه،

والأرضِ والسماوات، والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ المسخَّرات، معتمِداً في ذلك ما اعتَمَده الأئمَّةُ الأعلام، وعلماءُ الإسلام، من الأئمَّةِ المحدِّثين، والعلماءِ المفسِّرين.

ثم قال: وسمَّيتُه:

«نَزْهةَ نُفوسِ الأخيارِ ومَطْلَعَ شَوارِقِ الأنوار»

ثم فصَّلها على حَسَبِ ما لخَّصها، فقسَّم كتابَه هذا إلى أبوابٍ:

أولها: بابٌ في ذِكْرِ أوَّلِ المخلوقاتِ واللَّوحِ والقَلَم.

الثاني: بابٌ في ذِكْرِ العَرْش.

الثالث: بابٌ في الكرسيِّ وحقيقتِه.

الرابع: بابٌ في ذِكْرِ السَّماوات.

الخامس: بابٌ في ذِكْرِ الشَّمس.

السادس: بابٌ في ذِكْرِ الأرض. وهو الأخير.

وعَقَد ضِمْن هذه الأبوابِ عدداً من الفُصول، فتناوَلَ تلك المواضِيعَ بما يَكْفي لبيانِ حقيقتِها، مزيِّناً ذلك بفوائدَ فَريدة ولطائِفَ مُفيدة.

لكنْ مع ذلك لم يَسْلمْ رحمهُ اللهُ من الوقوعِ في فخِّ الغرائبِ والإسرائيلياتِ، والأخبارِ الواهِيَات.

ولعل مِمَّا يُؤخذ عليه استدلالُه بأحاديثَ ضعيفةٍ، مع أنَّ في الصَّحيحين ما يُغني عنها، كحديث: «تفكَّروا في الخَلْقِ ولا تَفكَّروا في الخالِقِ فإنَّه لا تُحيطُ به الفِكَر».

وهو حديثٌ رواهُ بهذا اللَّفظِ الثعلبيُّ والبغويُّ في «تفسيرَيْهما» من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه، وقال ابنُ كثيرٍ: ليس بمحفوظٍ بهذا اللَّفْظ، وإنما الذي في

الصَّحيح: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقولُ: مَن خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقولَ: من خلق ربَّك؟ فإذا بلَغَ أحدُكم ذلك فلْيَسْتعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ».

ورواهُ بنحوِه أبو الشيخ في «العظمة» من رواياتِ عددٍ من الصَّحابةِ، وأسانيدُها كلُّها ضعيفةٌ كما قال السَّخاويُّ في «المقاصد»، ثم ذكَرَ أنَّ معناها في روايةِ مسلمٍ: «لا يزالُ النَّاسُ يتساءلونَ حتى يقالَ: هذا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ فمَن خَلَقَ اللهَ؟ فمَن وجَد مِن ذلك شيئاً فلْيَقُلْ: آمنتُ باللهِ».

ومن ذلك احتجاجُه بأحاديثَ لا يُعرفُ لها أصلٌ، كحديث: «إنَّ اللهَ تعالى احْتَجبَ عن البصائرِ كما احْتَجبَ عن الأَبْصار، وإنَّ الملأَ الأَعْلَى يَطلبونَهُ كما تَطْلبونَهُ أنتم».

وهو حديثٌ ذكرَه ابنُ عربيٍّ صاحبُ «الفُصوص» في «الفتوحات المكية»، ولم أقفْ عليه عند غيره.

ومن غريبِ ما ذكرَه: القولُ بأنَّ أوَّلَ المخلوقاتِ نورُ نبيِّنا، بل ونَسَبه للجمهورِ، وجَعَله هو المشهور، فقال: والمشهورُ الذي عليه الجمهورُ من العلماءِ: أنَّ أوَّلَ المخلوقاتِ نورُ نبيِّنا محمدٍ.

ولا أدري مَن هم هؤلاءِ الجمهورُ، وإنما هو شيءٌ جاء به بعضُ المتأخِّرين وليس لهم فيه سلفٌ من هذه الأمَّة، ولا متمسَّكٌ من حديثٍ ثابتٍ ولا أثر، وإنَّما أَتَوا في ذلك بحديثٍ عزَوْه لعبدِ الرزَّاقِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنه، ذكرهُ القسطلانيُّ في «المواهب اللَّدُنِّيَّة» مستدِلًّا به على أوَّليَّةِ خلقِ النُّورِ المُحمَّديِّ قبلَ الأشياءِ كلِّها، وفيه: (قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ! بأبي أنتَ وأُمِّي، أخبِرْني عن أوَّلِ شيءٍ خلَقَه اللهُ تعالى قبلَ الأشياءِ، قالَ: «يا جابرُ، إنَّ اللهَ تعالى خلَقَ قبلَ الأشياءِ

نورَ نبيِّك من نُورِه، فجَعَلَ ذلك النُّورَ يدورُ بالقُدرةِ حيثُ شاءَ اللهُ تعالى، ولم يكُنْ في ذلك الوقتِ لوحٌ ولا قلَمٌ، ولا جنَّةٌ ولا نارٌ، ولا ملَكٌ، ولا سماءٌ ولا أرضٌ، ولا شمسٌ ولا قمَرٌ، ولا جِنٌّ ولا إنسٌ، فلمَّا أرادَ اللهُ تعالى أن يخلُقَ الخَلْقَ قسمَ ذلك النُّورَ أربعةَ أجزاءٍ...)[1].

وهذ الحديثُ لَمْ أَعْثُرْ له على عينٍ ولا أثر، لا عندَ عبدِ الرزَّاقِ ولا عندَ غيرِه.

ثم جعَلوه مؤيِّداً للحديثِ الموضوع: «لولاكَ لمَا خلَقْتُ الأفلاكَ»[2].

والعجيبُ أنَّ مَن أَيَّد هذا بهذا ـ وهو الملَّا علي القاري ـ هو نفسُه قد ذكَر هذا الحديثَ الثانيَ في الموضوعاتِ، وهو ممن تمسَّكَ بهذا القول ـ أعني: أَوَّليَّةَ خلقِ النَّورِ الـمُحمَّديِّ ـ في كثيرٍ مِن كتبه ورسائلِه، ومنها: ما جاء في بدايةِ كتابِه: «فضائل بيتِ اللهِ الحرام» وقد نبَّهنا عليه في تحقيقِنا لكتابه ذاك.

والقولُ بهذا ـ أعني أَوَّليَّةَ النُّورِ المحمديِّ ـ قد نسبهُ بعضُ العلماءِ للشِّيعة فقال: وسمعتُ بعضَ الشيعةِ يزعُمون أنَّ أَوَّلَ ما خلَق اللهُ نورَ محمدٍ وعليٍّ، ويَرْوونَ فيه روايةً واللهُ أعلمُ بحقِّها[3].

ثم إنَّ هذا القولَ معارِضٌ للحديثِ الصَّحيحِ أنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القلمُ. وقد ذَكَره الشيخ الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة»[4] بلفظِ: «إنَّ أَوَّلَ شيءٍ خلقَه اللهُ تعالى القَلَمُ، وأَمرَه أنْ يكتبَ كلَّ شيءٍ يكونُ»، ثم قال: وفي الحديثِ إشارةٌ إلى ما يَتناقَلُه

---

(١) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٤٨)، و«الفتاوى الحديثية» لابن حجر الهيتمي (ص٤٤).

(٢) انظر: «الموضوعات» للصغاني (ص٥٢) و«الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة» لعلي القاري (ص٢٩٥)، و«الفوائد المجموعة» للشوكاني (ص٣٢٦).

(٣) انظر: «البدء والتاريخ» للمطهر بن طاهر المقدسي (١/ ١٥٠).

(٤) برقم (١٣٣).

الناسُ حتى صارَ ذلك عقيدةً راسخةً في قلوبِ كثيرٍ منهم، وهو أنَّ النُّورَ المحمَّديَّ هو أولُ ما خَلَق اللهُ تبارَكَ وتعالى، وليس لذلكَ أساسٌ من الصِّحةِ، وحديثُ عبدِ الرزَّاق غيرُ معروفٍ إسنادُه.

ومما يُؤخَذُ عليه أيضاً كثرة إيرادِهِ للغرائبِ والإسرائيلياتِ والأخبارِ الواهيَة، كخبرِ ابنِ عباسٍ في القلم، والذي فيه: أن الله خَلَق للقلمِ ثلاثَ مئةٍ وستِّين سِنًّا يَستمدُّ كلُّ سنٍّ مِن ثلاثِ مئةٍ وستِّين بحراً مِن العلوم، واللَّوحُ مِن زمرُّدةٍ خضراءَ له دُفَّتانِ من ياقوتٍ.

وهذا الخبرُ عزاه لابنِ عربيٍّ، ونعتَه بنزيلِ دمشقَ، ويعني به مُحييَ الدِّين، وذكَر أنَّه رواهُ بسندهِ إلى ابنِ عباسٍ، فمَتَى كان ابنُ عربيٍّ ممن يُحتَجُّ برواياته، عِلْماً أنَّ الخبر لم أجِدْه في أيِّ مصدرٍ آخَرَ.

ومثلُه ما رواه وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ: مِن أن القلمَ خلَقه اللهُ من نورٍ طولُه خمسُ مئةِ عامٍ قَبْلَ أنْ يَخلقَ الخلقَ، فقال له: اكتُبْ، فقال القلمُ: وما أَكْتُبُ يا ربّ؟ قال: اكتُبْ عِلْمِي في خَلْقي إلى يومِ القيامةِ، فجرى القَلَمُ على عِلْمِ الله، قال: وسنُّ القلمِ مَشقوقةٌ يَنبعُ منها الـمِدَادُ.

وهو خبرٌ يرويهِ عبدُ المنعِمِ بنُ إدريسَ بنِ سِنَانٍ عن أبيه عن وهبِ بنِ منبهٍ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما موقوفاً. وعبدُ المنعِمِ بنُ إدريسَ قال عنه أحمدُ بنُ حنبلٍ: كان يَكذِبُ على وهبِ بنِ منبهٍ، وقال البخاريُّ: ذاهبُ الحديثِ، وقال ابنُ حِبَّان: يضعُ الحديثَ على أبيهِ وعلى غيرِه.

ومثلُه ما ذكَره في اللَّوحِ عن ابنِ عباسٍ مما رواهُ الثعلبيُّ: أنَّه لوحٌ من درَّةٍ بيضاءَ، طُولُه ما بينَ السماءِ والأرضِ، وعَرْضُه ما بينَ المشرِقِ والمغرِبِ، وحافَتاهُ الدُّرُّ والياقوتُ، ودُفَّتاهُ من ياقوتةٍ حمراء، وأصلُه في حِجْرِ مَلَكٍ يقالُ له: ماطريون...

وهو خبرٌ تالفٌ من روايةِ إسحاقَ بنِ بشرٍ المتَّهم.

أما العرشُ فلم يكُنْ بأقلَّ حظًّا من تلك الغرائب؛ كالذي رُوي عن حمَّادٍ قال: خَلَق اللهُ العرشَ من زمرُّدةٍ خضراءَ، وخَلَق له أربعَ قوائِمَ من ياقوتةٍ حمراءَ.

ومِن أين عَلِمَ هذه الصفاتِ للعرش، وهل يُؤخَذُ مثلُ هذا إلا مِن كلامِ اللهِ والسنَّةِ الصَّحيحةِ الثابتةِ عن رسولِ اللهِ ﷺ؟

وليس بأقلَّ من هذا في الإغراب ما ذكرَه: من أنَّ العرشَ من جوهرةٍ خضراءَ، وبين القائمَتَينِ من قوائمِه خَفقانُ الطيرِ المسرعِ ثمانينَ ألفَ عام، وأنه يُكْسَى كلَّ يومٍ سبعينَ ألفَ لونٍ من النُّورِ لا يستطيعُ أنْ يَنظرَ إليه خَلْقٌ مِن خَلْقِ اللهِ تعالى، وأنَّ للهِ تعالى مَلَكاً يُقالُ له: حزقيائيل، له ثمانيةَ عَشَر ألفَ جَناحٍ، ما بين الجَناحِ إلى الجَناحِ خمسُ مئةِ عامٍ، وأن الله سبحانه أوحَى إليهِ: أيُّها الملَكُ طِرْ، فطار عشرينَ ألفَ سنةٍ ثم لم يَنَلْ رأسُه قائمةً من قوائمِ العرشِ... إلى آخره.

وهذا خبرٌ ذكرَه الثعلبيُّ في كتابهِ في قصصِ الأنبياءِ المسمَّى: «عرائس المجالس» عن جعفرِ بنِ محمدٍ عن أبيهِ عن جدِّه، وجدُّه هو عليُّ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهم.

واللهُ أعلمُ بصحة هذا الخبرِ، وحتى لو ثبتَ أنه قاله فلا يصلُحُ للاحتجاجِ به في مثلِ هذه الأمورِ الغيبيَّة، وخصوصاً بما حَوَاه من الغرائبِ، وما ذُكِرَ فيه من تلكَ الأعدادِ التي لا تؤخَذُ إلا من كلامِ اللهِ أو حديثِ رسولهِ ﷺ.

ومثلُ هذا يقالُ أيضاً فيما ذكرَه عن لقمانَ بنِ عامرٍ عن أبيهِ قال: إنَّ اللهَ خَلَقَ العرشَ من جوهرةٍ خضراءَ لهُ ألفُ ألفِ رأسٍ، في الرأسِ ألفُ ألفِ وجهٍ، وستُّ مئةِ ألفِ وجهٍ، والوجهُ الواحدُ كطِباقِ الدُّنيا ألفَ ألفِ مرَّةٍ وستَّ مئةِ ألفِ مرَّةٍ، في الوجهِ الواحدِ ألْفُ ألفِ لسانٍ، كلُّ لسانٍ يُسبِّحُ اللهَ بألفِ ألفِ لغةٍ.

وأشدُّ منه وأعظمُ في الخرافةِ ما ذكرَه عن كعبِ الأحبارِ أنَّه قال: لـمَّا خلَق اللهُ العرشَ قال: لن يخلُقَ اللهُ خَلْقاً أعظمَ منِّي، فاهتزَّ، فطوَّقهُ بحيَّةٍ وللحيَّةِ سبعونَ ألفَ جَناحٍ، وفي الجَناحِ سبعون ألفَ ريشةٍ، في كلِّ ريشةٍ سبعونَ ألفَ وجهٍ، في كلِّ وجهٍ سبعونَ ألفَ لسانٍ، يخرجُ من أفواهِها في كلِّ يومٍ من التَّسبيحِ عَدَدَ قَطْرِ المطَرِ، وعدَدَ ورقِ الشَّجرِ، وعدَدَ الحصَى والثَّرَى، وعدَدَ أيامِ الدُّنيا، وعدَدَ الملائكةِ أجمعِينَ، فالْتَوَتِ الحيَّةُ بالعرشِ، فالعرشُ إلى نصفِ الحيةِ.

وهل يشكُّ مسلمٌ أنَّ هذه من الإسرائيلياتِ التي دَخلتْ تراثَنا عن طريقِ كعبٍ وابنِ وهبٍ وغيرِهما، هذا إنْ صحَّت نسبتُها إليهما، وكان الأَوْلى بالمؤلفِ تنزيهَ كتابِهِ عن أمثالِ هذه الخرافاتِ الشَّنيعة، ولا أَرى يشفَعُ له ختمُها بقولِهِ: (كذا قيلَ، واللهُ تعالى أعلم).

ومثلُ ذلك يقالُ في قولِهِ: ورُوِي أنَّ لكلِّ واحدٍ من حملةِ العرشِ أربعةَ أوجُهٍ: وَجْهَ ثورٍ، ووَجْهَ أسدٍ، ووجهَ نسرٍ، ووَجْهَ إنسانٍ، وله أربعةُ أجنحةٍ: فجناحانِ على وجهِهِ مخافةَ أنْ يَنظرَ إلى العرشِ فيَحترِقَ وجناحان يطيرُ بهما.

كما تجدُه لا يكتَفي بالاستدلالِ بأحاديثَ باطلةٍ، بل يَبْني عليها فيصحِّحُ قولاً ويَستبعِدُ آخَرَ، ويستشكِلُ معنًى ثم يَحلُّ الإشكالَ وهكذا، وكلُّه بالبناءِ على ذلك الحديثِ الباطلِ، ومنهُ مَا ذكرَه عن الثعلبيِّ أنه روَى عن ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى لمَّا أَبرمَ خَلْقَه فلمْ يَبْقَ مِن خَلْقِه غيرُ آدمَ، خَلَق شمسَينِ من نورِ عرشِهِ، فأمَّا ما كانَ في سابقِ علمِه أنَّه لا يطمسُها فخَلَقَها مِثْلَ الدُّنيا ما بينَ مَشارِقها ومَغارِبها، وما كان في سابِقِ علمِه أنَّه يطمسُها ويحوِّلُها قمراً فخَلَقَها دونَ الشَّمسِ في العِظَم..» الحديث.

وهو حديثٌ باطلٌ في رواتِهِ مَن هو متَّهمٌ بالكذبِ، وقد تكلَّمْنا عليه في مكانه.

ثم في (باب الأرض) ذكَرَ ما هبَّ ودبَّ من الخُرافاتِ والرواياتِ الباطلةِ، مِن نحوِ: أنَّ اللهَ ـ سبحانهُ ـ خَلَقَ الأرضَ على حُوتٍ، والحوتُ في الماءِ، والماءُ على ظهرِ صَفاةٍ، والصَّفاةُ على ظهرِ مَلَكٍ، والملَكُ على صخرةٍ، والصَّخرةُ على الرِّيح.

ونحو: الأرضُ على ظهرِ النُّونِ، والنُّونُ على بحرٍ، وإنَّ طَرَفي النُّونِ رأسَه وذنَبَه يلتقيانِ تحتَ العرشِ، والبحرُ على صخرةٍ خضراءَ، والصَّخرةُ على ظهرِ ثورٍ، والثَّورُ على الثرى...إلخ.

ولعل المؤلِّف كان مُولَعاً بالغرائبِ ولو كانت في أخبارٍ واهيةٍ، فمِن ذلك ذكرُ المدينتينِ اللتَين إحداهما بالمشرقِ والأخرى بالمغربِ، كلُّ واحدةٍ طولُ اثني عَشَر ألفَ فَرسخٍ، ولكلِّ مدينةٍ عشرةُ آلافِ بابٍ يَحرُسُ كلَّ بابٍ في كلِّ ليلةٍ عشرةُ آلافِ رجلٍ لا تلحقُهم النَّوبةُ إلى يومِ القيامةِ، الرجلُ منهم يُعمَّرُ ستَّةَ آلافِ سنةٍ، فما دونَها وهم يأكلونَ ويَشربونَ ويتناكَحُون، والمدينتانِ خارجتانِ من الدُّنيا لا يَرَوْن شمساً ولا قمراً، ولا يَعرِفونَ آدمَ ولا إبليسَ، يَعبدونَ اللهَ ولهم نورٌ يَسْعَون فيه من غيرِ شمسٍ ولا قمرٍ، وفيه: أنَّ النبيَّ ﷺ مرَّ عليهم ليلةَ الإسراءِ والمعراجِ ودعاهُم فأجابُوه.

ومثلُه خبرُ أبيِّ بنِ كعبٍ في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ العالَمِين رهطٌ من الملائكةِ، وهم ثمانيةَ عَشَر ألفَ مَلَكٍ، منهم أربعةُ آلافٍ وخمسُ مئةٍ بالمشرِق، ومِثْلُ ذلك بالمغرب، ومِثْلُ ذلك في الجانبينِ الآخَرين، مع كلِّ مَلَكٍ منهم من الأعوانِ مالم يَعلمْ عدَّتَهم إلا الله، ومن ورائِهم الجهاتُ الأربعُ، أرضٌ بيضاءُ كالرُّخامِ عرضُها مسيرةُ الشمسِ أربعين يوماً...إلخ.

والخبرانِ كلاهُما من روايةِ نوحِ بنِ أبي مريمَ المتَّهمِ بالوضعِ كما بينَّاه في مكانه.

لكنْ رغمَ ذلك فقد كانَ للمؤلِّف رحمه اللهُ تعقُّباتٌ كثيرةٌ فيها ردُّ المسائلِ إلى الكتابِ والسنَّة، كما في ردِّه على مَن عيَّنوا عمرَ الأرضِ من الفلاسفةِ وغيرِهم، فقال: وما ذهبَ إليه هؤلاءِ فهو تخيُّلاتٌ فاسدةٌ وتوهُّماتٌ كاذبةٌ لا دليلَ عليه من السُّنَّة والكتابِ، ولا مستنَدَ لهم فيه إلا مجرَّدُ الرأيِ الفاسِدِ المخالِفِ للصواب، وإنَّ مقدارَ عِمارةِ الدنيا وإتيانِ الساعةِ لا يعلمُه إلا ربُّ الأرباب، فوقتُ إتيانِ الساعةِ مبهَمٌ انْفَرَدَ اللهُ سبحانه بعِلْمه وأخفاهُ عن عبادِه لأنَّه أصلحُ لهم.

وبالجملة: فهذه الرسالةُ مليئةٌ بالفوائدِ، زاخرةٌ بالأخبارِ وأقوالِ العلماءِ ومذاهِبِهم، فإذا أُضيفَ إلى ذلك ما أعانَنا الله عليه من تخريجٍ للأخبارِ وبيانٍ لصحيحِها من سقيمِها، وما أَلْهمَنا إياه من بعضِ التعقُّباتِ والتَّصحيحاتِ فإنَّ الفائدةَ تكونُ أتمَّ والخيرَ أعمّ، وبالله التوفيق.

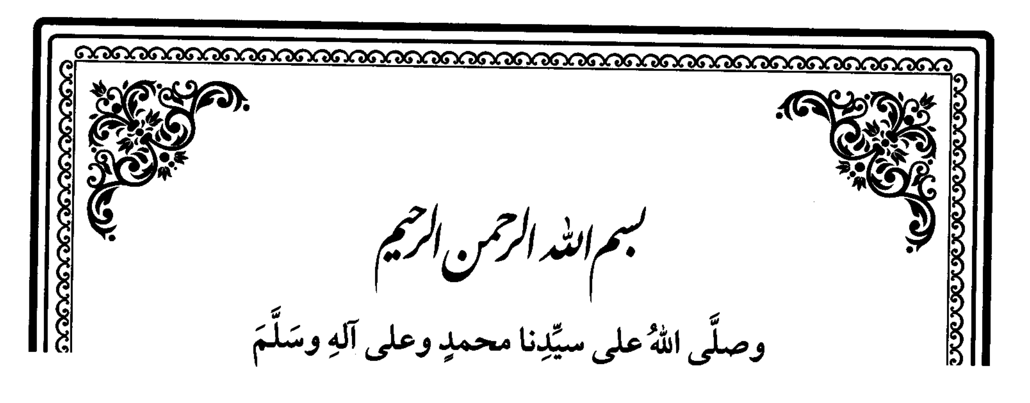
وقد اعتمدْنا في تحقيقِ هذه الرِّسالةِ على نسخةٍ وحيدةٍ، وهي نسخةُ المكتبة الأزهرية، والرمز لها بـ(ز).

والحمدُ لله ربِّ العالمين

المحقق

* * *





قال العبدُ الفقيرُ إلى اللهِ تعالى مَرْعيُّ بنُ يوسفَ الحنبَليُّ المقدِسيُّ: الحمدُ للهِ الذي تفرَّدَ بالوَحدانيَّة، وتَقدَّسَ بالأُلوهيَّة، وتَنَزَّه عن الكيفيَّة، فلا تُحيطُ به العقولُ، ولا تُدْرِكُه الظُّنونُ، تاهَتْ عقولُ ذَوِي الألبابِ في عَظيمِ ذاتِه، وحارَتْ بصائِرُ أُولي الأبصارِ في قَديمِ صِفاتِه، واحْتَجبَ عن البصائرِ فلا وصولَ إليه لشيءٍ من مخلوقاتِه، سبحانَ ربِّكَ ربِّ العزَّةِ عمَّا يَصِفون.

أَبدعَ العَرشَ بباهِرِ قُدرتِه، واخْترَعَ ما فيه بباهِرِ حكمتِه، وسخَّر الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ بمشيئتِه، وجعَل الظُّلماتِ والنُّورَ ثم الذينَ كفروا بربِّهم يَعْدِلون.

وَسِعَ كرسيُّه السماواتِ والأرضَ، وفاقَهُما في الطُّولِ والعَرْض، وهو بالنسبةِ للعرشِ كحَلْقةٍ مُلْقاةٍ بالأرض، أإلهٌ مع الله؟! تعالى اللهُ عمَّا يُشْرِكون.

أَحْمَدُه سبحانَهُ على ما مَنَحَ مِن نِعَمٍ ومِنَن، وأشكُرُه على ما ظَهَر منها وبَطَن، وأسألُه أنْ يَدفَعَ عنَّا كلَّ همٍّ وحَزَن، وأنْ يجعَلَنا من عبادِه الذين هم به عارِفون.

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، شهادةَ عبدٍ مُخْلصٍ يَشهدُ بإخلاصهِ المخلِصون.

وأشهَدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه نبيُّه المجتبَى، ورسولُه المرتَضَى من كلِّ الخلائقِ به يتوسَّلون، وإليه في القيامةِ يُهْرَعون.

صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الأئمَّةِ الأعلام، ومصابيحِ الظَّلام، الذين كانوا يسارِعونَ في الخيراتِ وهُم لها سابِقون، وسَلَّم تسليماً.

وبعد:

فهذه فوائدُ تَقَرُّ بها العُيون، وفَرائِدُ يُسرُّ بها المحبوب، وإشاراتٌ يَلتذُّ بمَعانِيْها مُعايِنُها، وتحريراتٌ يطمئنُّ بما فيها مُوافِيها، مشتملةٌ على ذِكر القلَمِ واللَّوحِ، والعَرشِ وصفتِه، والكرسيِّ وحقيقتِه، والأرضِ والسماوات، والشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ المسخَّرات، معتمِداً في ذلك ما اعتَمَده الأئمَّةُ الأعلام، وعلماءُ الإسلام، من الأئمَّةِ المحدِّثين، والعلماءِ المفسِّرين، راجياً دعوةَ عبدٍ صالحٍ حينَ يمرُّ عليها متفكِّراً، أو يَنظُرُ إليها متذكِّراً، جعَلها اللهُ تعالى عَروساً حَسناءَ مَعْذوبةَ اللَّمَا[1]، راشفةً لي بسُلافةِ رِيقِها في موقفٍ يُحتاجُ فيه إلى الماء.

فأقولُ وعلى اللهِ قَصْدُ السَّبيل، ومنه أرجُو الوصولَ إلى كلِّ نَيْل، وسمَّيتُه:

«نُزْهة نُفوسِ الأخيارِ ومَطْلَعَ شَوارِقِ الأنوار»

* * *

---

(١) «اللما» كذا وقعت في (ز)، ولعله يريد: (اللمى)، وهو سمرة الشفتين، ومدها لتناسب ما سيأتي من كلمة: «الماء».

مقدِّمة

اعلَمْ وفَّقَكَ اللهُ تعالى: أنَّ البارِيَ جَلَّ ثناؤه وتقدَّستْ أسماؤُه موجودٌ قديمٌ حيٌّ، سميعٌ بصيرٌ قديرٌ، ليس بعَرَضٍ ولا جسمٍ ولا جوهرٍ، ولا معدودٍ ولا محدودٍ، ولا متبعِّضٍ ولا متجزِّءٍ، ولا مركَّبٍ ولا مثنًّى. لا يُوصَفُ بالمائيَّةِ ولا بالكيفيَّة، ولا يتمكَّنُ في مكان، ولا يَجْري عليه زمان، ولا يُشْبِهُه شيءٌ، ولا يَخرجُ عن علمِه وقُدرتِه شيءٌ، وهو تعالى خالِقٌ لأفعالِ العِباد؛ من الكفرِ والإيمان، والطاعةِ والعِصْيان، وكلُّ أفعالِهم بإرادتِه ومَشيئتِه، وحُكْمِهِ وقضيتِه، لا تُدْرِكُه الأبصارُ ولا تُحيطُ به العقول، ليس قبلَهُ شيءٌ ولا بعدَه، هو الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ، وهو بكلِّ شيءٍ عليم.

وسُئِلَ بعضُ العلماءِ عن اللهِ تعالى فقال: إنْ سأَلْتَ عن أسمائِهِ فقولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وإنْ سألتَ عن صفاتِهِ فقولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾، وإنْ سأَلْتَ عن أقوالِهِ فقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وإنْ سأَلْتَ عن أفعالِهِ فقولُه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وإنْ سأَلْتَ عن نَعْتِهِ فقولُه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، وإنْ سأَلْتَ عن ذاتِهِ فقولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وسأل قومٌ عليًّا كرَّمَ اللهُ وجهَهُ فقالوا: يا ابنَ عمِّ رسولِ الله! أين كانَ ربُّنا؟ أو: هل لهُ مكان؟ فتغيَّرَ وجهُه وسَكَتَ ساعةً، ثم قال: (أينَ) سؤالٌ عن المكان، وكانَ اللهُ ولا مكانَ له، ثم خَلَقَ المكانَ والزَّمان، وهو الآنَ كما كانَ بلا مكانٍ ولا زمَان[1].

---

(١) لم أقف عليه.

وسأَلَ رجلٌ الإمامَ مالكَ بنَ أنسٍ عن قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقال مالكٌ: الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفيَّة غيرُ معقولةٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بِدْعةٌ، وما أُراكَ إلَّا ضالًّا، فأَخْرَجوه فإذا هو جَهْمُ بنُ صَفْوان(١).

وفي «تفسيرِ البغويِّ» عن أُبيِّ بنِ كعبٍ عن النبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] قال: «لا فكرةَ في الربِّ»(٢).

وعن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَفَكَّروا في الخَلْقِ ولا تَفَكَّروا في الخالِقِ فإنَّه لا تُحيطُ به الفِكَر»(٣).

---

(١) انظر: «تفسير أبي الليث» (١/ ٦٦)، ورواه دون تعيين السائل: الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٠٤)، وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/ ٢١٤)، وابن المقرئ في «معجمه» (٢٠٠٣).

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٥٠)، ومن طريقه البغوي في «تفسيره» (٧/ ٤١٧)، ورواه أيضاً الدارقطني في «الأفراد» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٦٦٢). وفي إسناده أبو جعفر الرازي وهو ضعيف، ورواه أبو الشيخ في «العظمة» (٦) عن سفيان الثوري قوله.

(٣) رواه بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وكذا أورده من حديثه البغوي في «تفسيره» (٧/ ٤١٧)، وقال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]: كذا أورده، وليس بمحفوظ بهذا اللفظ، وإنما الذي في الصحيح [البخاري (٣٢٧٦) ومسلم (١٣٤/ ٢١٤)]: «يأتي الشيطانُ أحدَكم فيقول: مَن خلَق كذا؟ مَن خلَق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربَّك؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته».

ورواه بنحوه أبو الشيخ في «العظمة» (١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، و(٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، و(٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٦ ـ ٦٧) من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه. قال السخاوي في «المقاصد الحسنة» (ص٢٦١): وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنى صحيح، وفي «صحيح مسلم» [برقم (١٣٤/ ٢١٢)] عن أبي هريرة مرفوعاً: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: =

وفي الحديث: «لا تَتفكَّروا في عِظَمِ ربِّكُم ولكنْ تَفكَّروا فيما خَلَق من الملائكةِ، فإنَّ خَلْقاً من الملائكةِ يُقالُ له: إسرافيلُ، زاويةٌ من زوايا العرشِ على كاهلِهِ، قدمَاهُ في الأرضِ السُّفلى وقد مَرَق رأسُه من سبعِ سماواتٍ، وإنَّه ليتضاءَلُ من عظَمةِ اللهِ حتى يصيرَ كأنَّه الوَصَعُ»[1]. أي: العصفورُ.

وعن جعفرٍ الصَّادقِ قال: صَحِبْتُ أربعَ مِئةِ صُوفيٍّ، وسأَلْتُهم عن أربعِ مسائلَ، فلَمْ يُجِبْني واحدٌ منهم، فاغتَمَمْتُ لذلك، فرأيتُ النبيَّ ﷺ مناماً، فسألَني عن حالي فأخبَرْتُه بذلك، فقال: سَلْ مسألَتَكَ، فقلتُ له: ما حِقيقةُ التَّوحيد؟ وما حدُّ العقلِ؟ وما حدُّ التصوُّف؟ وما حقيقةُ الفقر؟ فقال عليه السلامُ: أمَّا حقيقةُ التوحيدِ فهو مهما خَطَر ببالِكَ فهو هالِكٌ، واللهُ سبحانهُ بخلافِ ذلك، وأمَّا حدُّ العقلِ فأدناهُ تركُ الدُّنيا، وأعلاهُ تركُ التَّفكُّرِ في ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأمَّا حدُّ التصوُّفِ فتركُ الدَّعاوي وكتمانُ المغاني، وأمَّا حقيقةُ الفقرِ فهو أنْ لا تملِكَ شيئاً ولا يملِكَكَ شيءٌ، وأنت راضٍ عن اللهِ تعالى في الحالتَيْنِ[2].

وقال الإمامُ الشَّافعيُّ رضي الله عنه: مَن انْتَهَضَ إلى مَطْلبِ مدبِّرِه؛ فإنِ انْتَهَى إلى موجودٍ ينتهِي إليه فكرُه فهو مشبِّهٌ، وإنِ اطْمأنَّ إلى نَفْيٍ مَحْضٍ فهو

= هذا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ فمَن خَلَقَ الله؟ فمَن وجَد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله».

(١) ذكره بهذا اللفظ الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ١٥٥) من طريق شهر بن حوشب عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه بنحوه أبو الشيخ في «العظمة» (٢٧) (٤٧٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٦٦)، قال أبو نعيم: تفرد به إسماعيل بن عياش عن الأحوص بن حكيم عن شهر بن حوشب عن ابن عباس. قلت: والأحوص بن حكيم ضعيف من قبل حفظه كما في «التقريب»، وفي «المغني» للذهبي (١/ ٦٤): قال ابن معين: لا شيء، وقال النَّسائيّ: ضعيف.

(٢) لم أقف عليه. ولا حجة في الشرع للأحلام والرؤى.

معطِّلٌ، وإنِ اطْمـأنَّ إلـى موجـودٍ واعتـرَفَ بالعجزِ عـن إدراكهِ فهـو موحِّدٌ(١).

وعن عليٍّ كرَّم اللهُ وجهَهُ: أنَّ العقلَ لإقامةِ رسمِ العبوديَّةِ [لا] لإدراكِ الربوبيَّة(٢).

وفي الحديث: «إنَّ اللهَ تعالى احْتَجبَ عن البصائرِ كما احْتَجبَ عن الأَبْصار، وإنَّ الملأَ الأَعْلَى يَطلبونَهُ كما تَطْلبونَهُ أنتم»(٣).

وسُئل أعرابيٌّ عن دليلِ وجودِ الصَّانع، فقال: البعرةُ تَدُلُّ على البَعِير، وآثارُ الأقدامِ تَدُلُّ على الـمَسِير، فسماءٌ ذاتُ أَبْراج، وأرضٌ ذاتُ فِجَاج، وبحارٌ ذاتُ أَمْواج، ألَا تَدُلُّ على العَلِيمِ الخَبِير.

وسُئِلَ صُوفـيٌّ عـن الدَّليـلِ علـى أنَّ اللهَ أَوْحـدُ، فقـال: أغنَـى الصَّبـاحُ عـن المِصْبـاح.

إذا تقرَّرَ هذا فلْنَشرَعْ في المقصودِ من الكتاب بعونِ الملِكِ الوهَّاب.

***

(١) انظر: «ربيع الأبرار» للزمخشري (٢/ ٢٤٣)، و«البرهان المؤيد» لأحمد الرفاعي (ص١٥ ـ ١٦).

(٢) انظر: «روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار» لمحيي الدين محمد بن قاسم بن يعقوب الأماسي الحنفي (ص١٥)، و«الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية» لابن علان (٧/ ٣٣٣)، وما بين معكوفتين منهما.

(٣) انظر: «الفتوحات المكية» (١/ ١٤١).

بابٌ
في ذكرِ أوَّلِ المخلوقاتِ واللَّوحِ والقَلَم

اعْلَمْ وفَّقكَ اللهُ تعالى أنَّ العلماءَ قد اخْتَلَفوا في أولِ المخلوقاتِ بعدَ إجماعِهم على أنَّ العالَم بأسرِه محدَثٌ:

فقيل: أوَّلُ المخلوقاتِ العَرشُ، وقيل: الماءُ، وقيل: العَمَاءُ، وقيل: الهواءُ، وقيل: القلمُ. ولكلِّ قولٍ دليلٌ:

ففي «التِّرْمِذيِّ» عن أبيِّ بنِ كعبٍ قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ القلَمُ فقال له: اكتُبْ، فجَرَى بما هو كائنٌ إلى الأبدِ»[١].

قال عبدُ الرحمنِ بنُ أبي زُرارةَ: وهذا الحديثُ من الصِّحاح[٢].

وقال: الحافظُ أبو العلاء الهمَذانيُّ[٣]: الأصحُّ أنَّ العرشَ قبلَ القَلمِ؛ لِمَا ثَبتَ

---

(١) لم أجده عند الترمذي من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، لكن لفظه مطابق للفظ حديث عبادة بن الصامت عند الترمذي (٣٣١٩)، وابن الجعد في «مسنده» (٣٤٤٤). وحديثُ أبيٍّ رواه رزين. انظر: «جامع الأصول» (١٩٩١)، و«جمع الفوائد من جامع الأصول» للسوسي (٩١٧٣) و(٩١٧٤). وهو من زيادات رَزِينٍ العَبْدرِيِّ في كتابه «التَّجريد»، وقد قال الذَّهبيُّ في «سِيَر أعلامِ النُّبلاءِ» (٢٠/ ٢٠٥): أدخل كتابه زيادات واهية لو تنزه عنها لأجاد.

(٢) لم أجد القول ولا القائل.

(٣) في (ز): «أبو يعلى الهمداني»، والصواب المثبت، وانظر قوله الآتي في «بغية المرتاد» لابن تيمية (ص١٧٦)، و«منهاج السنة النبوية» له (١/ ٣٦١)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١/ ٨)، و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (ص٢٩٥). وأبو العلاء الهمذاني هو الإمام الحافظ المقرئ الحسن بن أحمد بن الحسن العطار شيخ همذان بلا مدافعة، سمع الكثير ورحل إلى بلدان كثيرة، اجتمع بالمشايخ وقدم بغداد وحصَّل الكتب الكثيرة، واشتغل بعلم القراءات واللغة حتى صار أوحد =

في الصَّحيحِ عن عبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «قَدَّرَ اللهُ مقاديرَ الخَلْقِ قبلَ أنْ يَخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عَرْشُه على الماءِ»[1].

فهذا صريحٌ في أنَّ التقديرَ وقعَ بعدَ خَلْقِ العرشِ؛ لأنَّ التقديرَ وقعَ عندَ أوَّلِ خَلْقِ القلمِ؛ لحديثِ عبادةَ بنِ الصَّامتِ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أولُ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قال لهُ: اكتُبْ، قال: يا ربِّ! وما أَكْتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كلِّ شيءٍ»، رواه الإمامُ أحمدُ والتِّرمذيُّ وصحَّحه[2].

وقال القاضي أبو بكرٍ ابنُ العربيِّ في «قانونه»[3]: إنَّ أوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ العرشَ، فكان عرشُه على الماءِ ما شاءَ أنْ يكونَ، وكان الماءُ على متنِ الرِّيحِ وفي الهواءِ[4].

= زمانه في علمي الكتاب والسنة، وصنف الكتب الكثيرة المفيدة، وكان على طريقة حسنة سخياً عابداً زاهداً صحيح الاعتقاد حسن السمت، له ببلده المكانة والقبول التام، توفي سنة (٥٦٩هـ) وله نيف وثمانون سنة. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٤٠).

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٧٠٥)، وأبو داود (٤٧٠٠) واللفظ له، والترمذي (٣٣١٩) ولفظه هو الذي تقدم قريباً مسنداً لأبيٍّ رضي الله عنه.

(٣) له كتاب: «قانون التأويل»، ولم أجد الكلام الآتي فيه.

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «العرش» (٣) من طريق شيخ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: (كان الماء على متن الريح وكانت الريح على الهواء)، وإسناده ضعيف لإبهام الشيخ الراوي عن سعيد بن جبير.

ورواه دون قوله: (وكانت الريح على الهواء) عبد الرزاق في «المصنف» (٩٠٨٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٨٤)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٥)، من طريق المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال: وفي الخبرِ الصحيحِ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ اللهَ تعالى خَلَقَ العرشَ قبل خَلْقِ الكرسيِّ بألْفَي عامٍ[1].

ووَرَدَ أنَّ الكرسيَّ خُلِقَ قبلَ القَلَم.

ورَوَى الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ وصحَّحه، من حديثِ أبي رَزِينٍ العُقَيليِّ: أنَّ الماءَ خُلِقَ قبلَ العرشِ[2].

ورَوَى السُّدِّيُّ بأسانيدَ متعدِّدةٍ: إنَّ اللهَ لم يَخْلقْ شيئاً ممَّا خَلَق قَبْلَ الماء[3].

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (١٩٢) من طريق حبيب بن أبي حبيب، عن أبي عصمة نوح بن أبي مريم، عن مقاتل بن حيان، عن الضحاك، عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً، وليس بصحيح كما ذكر، فحبيب بن أبي حبيب الخرْطَطي ـ كما في «التقريب» ـ قد كذبه ابن حبان، ونوح بن أبي مريم كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع. والضحاك لم يسمع من ابن عباس. وذكر هذا الحديث السيوطي في «الزيادات على الموضوعات» (١/ ٤٦) وقال: أبو عصمة نوح بن أبي مريم أحد المشهورين بالوضع، وحبيب بن أبي حبيب كذاب يضع الحديث.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٦١٨٨)، والترمذي (٣١٠٩)، من طريق وكيع بن حُدُسٍ (أو عُدُس) عن عمِّه أبي رَزِينٍ قال: قلت: يا رسولَ اللهِ! أين كان ربُّنا قبل أنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قال: «كان في عَمَاءٍ، ما تَحْتَهُ هواءٌ وما فوقهُ هواءٌ، وخَلَقَ عَرْشَهُ على الماءِ». قال الترمذي: حديث حسن. قلت: وكيع بن عدس قال عنه ابن القطان في «بيان الوهم والإيهام» (٣/ ٦١٧) وقد ذكر له هذا الحديث: لا تعرف له حال، وهو يروي عن عمه ما يروي، ولا يعرف عنه راو إلا يعلى بن عطاء. وقال الذهبي في «الميزان»: لا يعرف. وسيأتي هذا الحديث في (باب في ذكر العرش).

(٣) انظر: «فتح الباري» (٦/ ٢٨٩)، و«المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٤٩) والكلام منه. ورواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٧٤) عن أبي زرعة عن عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن السدي قوله.

ورواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٣٢) وفي «التفسير» (١/ ١٩٤) عن موسى بن هارون الهمداني، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٠٧)، من طريق أحمد بن محمد بن نصر، كلاهما عن عمرو =

والمشهورُ الذي عليه الجمهورُ من العلماءِ: أنَّ أوَّلَ المخلوقاتِ نورُ نبيِّنا محمدٍ ﷺ[(١)].

والجمعُ بينَ ما مرَّ من الأحاديثِ المتعارِضةِ ـ على ما أشارَ لبعضِه صاحبُ «المواهِب القَسْطلانيَّة» ـ: أنَّ مَن قال: القلمُ أوَّلُ المخلوقات، يعني: بالنِّسبةِ لِـمَا عَدَا الكرسيَّ والعرشَ والماءَ والهواءَ والنُّورَ المحمَّديَّ، وهكذا يُقالُ في كلٍّ واحدٍ: أوَّليَّته بالنِّسبةِ لِمَا عَدَا ما قَبْلَه[(٢)].

إذا تَقرَّرَ هذا: فالقَلَمُ ثابتٌ بالكتابِ والسنَّةِ وإجماعِ الأمَّة، قال الله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، ففي «تفسير مكيٍّ» عن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنَّ نون الدَّواةُ، والقلمَ هو القلمُ المعروف، قال: خلَقَ اللهُ النُّونَ وهوَ الدَّواةُ، وخلَقَ القلَمَ فقَالَ:

= ابن حماد عن أسباط عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن عبدالله بن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله، قالوا: (إن الله عز وجل كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء...)، هذا لفظ الطبري ومثله لفظ ابن أبي حاتم، أما لفظ البيهقي فهو كاللفظ المذكور أعلاه. والخبر طويل، وستأتي بقيته في (باب في ذكر الأرض)،

قلت: وهذا الإسناد من طريق السدي عن الصحابة المذكورين من الأسانيد الكثيرة الدوران في «تفسير الطبري»، علماً أن الطبري نفسه قد ارتاب به ولكنه لم يبيّن علّة ارتيابه، وللأستاذ محمود شاكر بحث مفيد في هذا الأمر، فانظر «تفسير الطبري» (طبعة دار المعارف) (١/ ١٥٦ ـ ١٦٠).
وقال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] عن الإسناد المذكور: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم.

(١) كذا قال، ولا ندري عن أي جمهور ينقل، وانظر ما ذكرناه في المقدمة عن هذه المسألة.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني (١/ ٤٩).

اكتُبْ، قالَ: وما أكتُبُ؟ قالَ: اكتُبْ ما هوَ كائنٌ إلى يومِ القِيامةِ مِن عمَلٍ مَعمولٍ برٍّ أو فجُورٍ، ورزقٍ مَقسومٍ حَلالٍ أو حرامٍ، ثمَّ ألزِمْ كلَّ شيءٍ مِن ذلِكَ شأنَهُ مِن دخولِهِ في الدُّنيا ومُقامِهِ فيها كَمْ هوَ، وخُروجِهِ مِنها كيفَ[1].

وأخرج البزَّارُ عن عُبادةَ بنِ الصَّامتِ قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «أولُ ما خلَقَ اللهُ القلَمَ فقَالَ: اجرِ، فجرَى بما هوَ كائنٌ إلى يومِ القِيامةِ»[2].

قالَ عليُّ بنُ المدِينيِّ: إسنادُهُ حسَنٌ[3].

وفي «تفسِيرِ الثَّعلبيِّ»: قالَ ابنُ عمرَ: قالَ النبيُّ ﷺ: «أولُ شيءٍ خلَقَ اللهُ القلَمُ مِن نورٍ طولُهُ خَمسُ مئةِ عامٍ، فقالَ للقلَمِ: اجرِ، فجرَى بما هوَ كائنٌ إلى يومِ القِيامةِ مِن عمَلِ برِّها وفاجِرِها، ورَطبِها ويابِسِها»[4].

وقال وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ: خَلقَ اللهُ القلمَ من نورٍ طولُه خمسُ مئةِ عامٍ قَبْلَ أنْ يَخلقَ الخلقَ، فقال له: اكتُبْ، فقال القلمُ: وما أَكْتُبُ يا ربّ؟ قال: اكتُبْ عِلْمِي في خَلْقي إلى يومِ القيامةِ، فجرى القَلَمُ على عِلْمِ الله، قال: وسنُّ القلمِ مَشقوقةٌ يَنبعُ منها المِدَادُ[5].

---

(١) انظر: «الهداية إلى بلوغ النهاية» لمكي بن أبي طالب (١٠/ ٦٧٩٥) و(١٢/ ٧٦١٣)، ورواه الطبري في «تفسيره» (٢١/ ١٠٤) و(٢٣/ ١٤٣).

(٢) رواه البزار في «مسنده» (٢٦٨٧).

(٣) انظر: «الأحكام الوسطى» لعبد الحق الإشبيلي (٢/ ٣٠٧).

(٤) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٣٦٧). وفي إسناده عثمان بن عبد الله الشامي، وهو متهم واهٍ، رماه بالوضع ابن عدي وغيره. انظر: «ديوان الضعفاء» للذهبي (ص٢٧٠).

(٥) قطعة من خبر رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٢) من طريق عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً. وعبد المنعم بن إدريس قال عنه أحمد بن حنبل كما في «الميزان»: كان يكذب على وهب بن منبه، وقال البخاري: ذاهب الحديث. =

وفي حديثِ ابنِ العربيِّ نزيلِ دمشقَ بسندِه المتَّصلِ لابنِ عباسٍ، وفيه: قال: ثم خَلَق القلمَ مِن نورٍ، وجَعَلَ طولَه من السَّماءِ إلى الأرضِ، فخَرَّ للهِ ساجِداً، ثم خَلَق اللَّوحَ المحفوظَ فخَرَّ أيضاً ساجداً، ثم قال لهما: ارْفَعَا رؤُوسَكُما، وخَلَق للقلمِ ثلاثَ مئةٍ وستِّين سِنًّا يَستمدُّ كُلُّ سنٍّ مِن ثلاثِ مئةٍ وستِّين بحراً مِن العلوم، واللَّوحُ مِن زمرُّدةٍ خضراءَ له دُفَّتانِ من ياقوتٍ، فقال للقلمِ: اكْتُبْ، فقال: ماذا أَكْتُبُ يا ربّ؟ قال: اكتُبْ في اللَّوحِ المحفوظِ قضائي في خَلْقي، وعِلْمي، وقَدَري الذي قدَّرْتُه عليهم، وكلَّ ما هو كائنٌ، فجَرَى القلمُ في اللَّوحِ المحفوظِ يَكتُبُ والحقُّ يُمْلي ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامة[١].

***

فصلٌ
في اللَّوحِ المَحْفوظ

قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ـ٢٢] فعنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما في تفسيرِ هذه الآية: أنَّه لوحٌ من درَّةٍ بيضاءَ، طُولُه ما بينَ السماءِ والأرضِ، وعَرْضُه ما بينَ المشرقِ والمغربِ، وحافَتاهُ الدُّرُّ والياقوتُ، ودُفَّتاهُ من ياقوتةٍ [حمراء]، وأصلُه في حِجْرِ مَلَكٍ يقالُ له: ماطريون، محفوظٌ مِن الشَّياطينِ ومِن أنْ يبدَّلَ ويُغيَّرَ، للهِ فيه كلَّ يومٍ وليلةٍ ثلاثُ مئةٍ وستُّون لحظةً، يُحْيي ويُميتُ ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَفعلُ ما يَشاءُ[٢].

= وقال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وعلى غيره.

(١) لم أقف عليه. ويعني بابن العربي نزيل دمشق: الشيخ محيي الدين ابن عربي المتصوف المعروف صاحب «الفصوص» و«الفتوحات».

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٠/ ١٧٦)، والبغوي (٨/ ٣٨٩)، وما بين معكوفتين منهما. وفي سنده =

وعن ابن عباسٍ أيضاً في تفسيرِ قولِهِ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] قال: إنَّ للهِ لوحاً محفوظاً مسيرةَ مئةِ عامٍ، من دُرَّةٍ بيضاءَ، له دُفَّتانِ من ياقوتةٍ حمراءَ، للهِ فيهِ كلَّ يومٍ ثلاثُ مئةٍ وستُّونَ لحظةً ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني اللوحَ المحفوظَ الذي لا يبدَّلُ ولا يغيَّرُ. حكَاهُ الثَّعلبيُّ[(١)].

وحَكَى أيضاً في قولِهِ تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]: إنَّ مما خلَقَ اللهُ لوحاً من دُرَّةٍ بيضاءَ، دُفَّتاهُ من ياقوتةٍ حمراءَ، قلمُه نورٌ، وكتابُه نورٌ، وينظُرُ اللهُ فيه كلَّ يومٍ ثلاثَ مئةٍ وستِّينَ نظرةً، يخلُقُ ويرزُقُ، ويُحيي ويميتُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ ويَفعَلُ ما يشاء، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[(٢)].

وقال وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ: خَلَقَ اللهُ لوحاً من درَّةٍ بيضاءَ، قلمُه مِن زمرُّدةٍ خضراءَ، وكتابُه نورٌ، ينظرُ اللهُ فيه كلَّ يومٍ ثلاثَ مئةٍ وستِّينَ نظرةً، يُحيي ويُميتُ، ويُعزُّ ويُذلُّ، ويرفَعُ أقواماً ويَخفضُ آخَرين، ويَحْكمُ ما يشاءُ، ويفعلُ ما يريدُ[(٣)].

= إسحاق بن بشر، وهو مجمع على تَركه وقد اتهم بالكذبِ، وقال ابن المَدِينيّ: كذَّاب. انظر: «المغني في الضعفاء» للذهبي (١/ ٦٩).

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٢٩٩)، و«تفسير القرطبي» (١٢/ ٩٣). ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٣٨٩)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ١٧٠)، وفيهما بعد كلمة (حمراء): (والدفتان لوحان).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ١٨٤)، ورواه من قول ابن عباس الطبري في «تفسيره» (٢٧/ ١٣٥)، والطبراني في «الكبير» (١٠٦٠٥) و(١٢٥١١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٣٢)، والحاكم في «المستدرك» (٣٩١٧)، والواحدي في «الوسيط» (٤/ ٤٢٢ و٤٦٣)، والبغوي في «تفسيره» (٧/ ٤٤٦).

(٣) قطعة من خبر رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٢) من طريق عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً. وقد تقدمت قطعة منه مع الكلام عليه قريباً.

وذكر الإمامُ فخرُ الدِّين في تفسيرِ قولهِ تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] أنَّه اللَّوحُ المحفوظُ.

قال: وجميعُ حوادثِ العالَمِ العُلْويِّ والعالَمِ السُّفليِّ مُثْبتةٌ فيه، وعن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كان اللهُ ولا شيءَ معه، ثم خَلَقَ اللَّوحَ المحفوظَ وأَثْبتَ فيه جميعَ أحوالِ الخَلْقِ إلى يومِ القيامة»[1].

تنبيه: إذا علمتَ ما مرَّ؛ فمذهبُ أهلِ الحقِّ أنَّ اللهَ تعالى قدَّرَ مقاديرَ الخَلْقِ وما يكونُ قبلَ أنْ يكونَ في الأَزَل، وخالَفَتِ القدريَّةُ ومَن ذَهَب إلى مذهَبِهم، وهو مذهبٌ باطلٌ، ويَدلُّ على بُطلانهِ الكتابُ والسنَّةُ:

أمَّا الكتابُ: فقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وأمَّا السنَّة: فما مرَّ، وحديثُ مسلمٍ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ قال:

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (١٩/ ٥٢)، والحديث لم أجده مسنداً. وروى البخاري (٣١٩١) من حديث عمران بن حصين: «كان اللهُ ولمْ يَكُنْ شيءٌ غَيْره، وكان عَرْشُه على الماءِ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كلَّ شيءٍ، وخَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ»، ورواه البخاري (٧٤١٨) أيضا بلفظ: «كان اللهُ ولمْ يَكنْ شيءٌ قَبْلَه». قال الحافظُ في «فتح الباري» (٦/ ٢٨٩) بعد أنْ ذَكر الرِّوايتين: وفي روايةِ غيرِ البخاريِّ: «ولم يَكُنْ شيءٌ معه» والقصَّةُ متَّحدةٌ، فاقتضى ذلك أنَّ الرواية وقعت بالمعنى.

قلت: وهذه الرِّواية: «كانَ اللهُ ولم يَكُنْ شيءٌ مَعَه» ونحوَها ممَّا فيه ذكرُ المعيَّة، قد عزاها البعضُ لغيرِ البخاريِّ وآخَرونَ للبخاريِّ، لكنْ لم أَجِدْها مسنَدةً.

سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «كتبَ اللهُ مقاديرَ الخَلْقِ قبلَ أنْ يَخلُقَ السَّماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ»[1].

وفي «مسلم» أيضاً حيث تَحاجَّ آدمُ وموسَى، وفيه: «قالَ آدمُ لموسى: أفَتلُومُني على أَمرٍ قد قدَّر عَلَيَّ قبلَ أنْ تُخلَقَ السَّماواتُ والأرضُ بخمسينَ ألفَ سَنَةٍ»[2]

وفي مسلِمٍ أيضَاً مِن حديثِ عليٍّ بنِ أبي طالِبٍ عَنِ النبيِّ ﷺ، وفيهِ: قالَ: «ما مِنْ نفسٍ مَنفوسَةٍ إلا وكتَبَ اللهُ مكانَها مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ، [و]إلا وقَدْ كتبَ شقيَّةً أو سعِيدةً» قالَ: فقالَ رجُلٌ: يا رسُولَ اللهِ! أفلا نمكُثُ عَلى كِتابنا وندَعُ العمَلَ؟ فقالَ: مَن كانَ مِن أهلِ السَّعادَةِ فسيَصِيرُ إلى عَملِ أهلِ السَّعادةِ، ومَن كانَ مِن أهلِ الشَّقاوةِ فسَيصِيرُ إلى عمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، اعمَلُوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلقَ لهُ، أمَّا أهلُ السَّعادَةِ فييسَّرونَ لعمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوةِ فيُيسَّرونَ لعَملِ أهلِ الشَّقاوةِ»[3].

وقال البخاريُّ في بعضِ طرقهِ من هذا الحديثِ: «اعمَلُوا، كلٌّ يَعملُ لِمَا خُلِقَ له، أو: لِمَا يُسِّرَ له»[4].

وفي «تفسير الكَوَاشيِّ»[5]: للسعادةِ علاماتٌ: لِينُ القلبِ، وكثرةُ البكاءِ، والزُّهْدُ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) رواه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وفيهما: «أتلُومُني عَلى أمرٍ قدْ قدَّرَ عليَّ قبلَ أنْ أُخلَقَ بأربعِينَ سنةً».

(٣) رواه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧)، وما بين معكوفتين منهما.

(٤) رواه البخاري (٦٥٩٦).

(٥) الكواشي هو أبو العباس، موفق الدين، أحمد بن يوسف الموصلي الشيباني الشافعي المتوفى سنة (٦٨٠)، واسم تفسيره: «التبصرة»، وهو تفسيره الكبير، ثم لخصه وسماه: «التلخيص»، وله أيضاً: =

في الدُّنيا، وقِصَرُ الأملِ، وكثرةُ الحياء، وللشَّقاوةِ علاماتٌ: قسوةُ القلبِ وجُمودُ العينِ، والرَّغبةُ في الدُّنيا، وطولُ الأملِ، وقلَّةُ الحياءِ.

وفيه أيضاً عن بعضِ المفسِّرين في قولِهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]: خاطَبَهم قبلَ خَلْقِهم فسمَّاهم كافِرينَ ومؤمِنينَ في أَزَلِهِ، فأَظْهرَهم حينَ أَظْهرَهم على ما سمَّاهم وقَدَّر عليهم، وأَخْبرَ أنَّه عَلِم ما يكونُ مِن خيرٍ وشرٍّ.

وفي الحديثِ: «خُلِقَ فِرعونُ في بطنِ أمِّه كافراً، وخُلِقَ يَحْيَى بنُ زكريَّا في بطنِ أمِّه مؤمِناً»(١).

فثبتَ بالكتابِ والسنَّةِ بُطلانُ قولِ القدريةِ، وفي الحديثِ: «القدريَّةُ مجوسُ هذِه الأمَّةِ، إنْ مَرِضوا فلا تَعُودُوهم، وإنْ ماتوا فلا تَشْهَدوهم»(٢)، واللهُ تعالى أعلمُ.

* * *

= «كشف الحقائق في التفسير». انظر: «كشف الظنون» (١/ ٤٥٧ و٤٨٠) و(٢/ ١٤٨٩).

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١٠٥٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩٣): إسناده جيد.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٩١) من طريق عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن ابن عمر، عن النبيِّ ﷺ. وإسناده ضعيف، قال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٣/ ٢٧٢): هذا منقطع، أبو حازم سلمة ابن دينار لم يسمع من ابن عمر، وقد روي هذا الحديث من طرق، عن ابن عمر ليس فيها شيء يثبت. قلت: والصحيح موقوف كما قال عبد الحق في «الأحكام الوسطى» (٢/ ٣٠٨): يروى هذا موقوفًا على ابن عمر، قال الدارقطني: وهو الصحيح.
ورواه بنحوه أبو داود (٤٦٩٢) من طريق عمر مولى غفْرَةَ عن رجل من الأنصار، عن حُذيفة رضي الله عنه مرفوعاً. قال المنذري في «مختصر سنن أبي داود» (٣/ ٢٧٣): عمر مولى غفْرة لا يحتج بحديثه، ورجل من الأنصار مجهول، وقد روي من طريق آخر عن حذيفة، ولا يثبت.

بابٌ

في ذكرِ العرشِ

وهو ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّة وإجماعِ الأمَّة:

أمَّا الكتابُ: فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

وأمَّا السُّنَّة: فأحاديثُ جمَّةٌ منها ما مرَّ، ومنها حديثُ التِّرمذيِّ عن أبي رَزِينٍ العُقيليِّ قال: قلتُ: يا رسول الله! أين كانَ ربُّنا قبلَ أنْ يَخلقَ خَلْقَه؟ قال: «كان في عَمَاءٍ، ما تحتَه هواءٌ وما فوقَهُ هواءٌ، وخَلَقَ عرشَهُ على الماءِ»[١].

وفي الحديثِ حذفُ مُضافٍ تقديرُه: أين كانَ عرشُ ربِّنا.

و(العَمَاءُ) بالمدِّ والقَصْر: السَّحابُ الرَّقيقُ، وقيل: هو الضَّبَابُ.

وأمَّا الإجماعُ: فقال الإمامُ فخرُ الدِّين: اتَّفَقَ المسلمون على أنَّه فوقَ السماواتِ جسمٌ عظيمٌ هو العرشُ[٢].

وقال وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ: أولُ ما خَلَقَ اللهُ العرشَ، ثم خَلَقَ الكرسيَّ، والكرسيُّ من نورٍ يتلألأُ.

وفي «الثعلبي» عن أبي ذرٍّ قال: قلتُ: يا رسولَ الله! أيَّ آيةٍ أنزلَ اللهُ عليكَ أعظمَ؟ قال: «آية الكرسيِّ» ثم قال: «يا أبا ذرّ، ما السماواتُ السبعُ مع الكرسيِّ إلا كحَلْقةٍ مُلْقاةٍ بأرضِ فلاةٍ، وفَضْلُ العرشِ على الكُرسيِّ كفضلِ الفَلَاةِ على الحَلْقة»[٣].

---

(١) رواه الترمذي (٣١٠٩)، وقد تقدم الكلام عليه في (باب اللوح والقلم).

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (١٧/ ١٩١).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٣٣)، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٣٦١).

وأخرج أبو الشَّيخِ عن حمَّادٍ قال: خَلَقَ اللهُ العرشَ من زمرُّدةٍ خضراءَ، وخَلَق له أربعَ قوائِمَ من ياقوتةٍ حمراءَ[١].

وفي «تفسير الزَّمَخْشريِّ» في سورةِ المؤمن: خَلَقَ اللهُ العرشَ من جوهرةٍ خضراءَ، وبين القائمَتَينِ من قوائمِه خَفَقانُ الطيرِ المسرعِ ثمانينَ ألفَ عامٍ[٢].

وفي «تفسير الثعلبي»: روَى لقمانُ بنُ عامرٍ عن أبيهِ قال: إنَّ اللهَ خَلَقَ العرشَ من جوهرةٍ خضراءَ لهُ ألفُ ألفِ رأسٍ، في الرأسِ ألفُ ألفِ وجهٍ، وستُّ مئةِ ألفِ وجهٍ، والوجهُ الواحدُ كطِباقِ الدُّنيا ألفَ ألفِ مرَّةٍ وستَّ مئةِ ألفِ مرَّةٍ، في الوجهِ الواحدِ أَلْفُ ألفِ لسانٍ كلُّ لسانٍ يُسبِّحُ اللهَ بألفِ ألفِ لغةٍ[٣].

والعرشُ يُكْسَى كلَّ يومٍ سبعينَ ألفَ لونٍ من النُّورِ لا يستطيعُ أنْ يَنظرَ إليه خَلْقٌ مِن خَلْقِ اللهِ تعالى، والأشياءُ كلُّها في العرشِ كحَلْقةٍ في فلاةٍ وإنَّ للهِ تعالى مَلَكاً يُقالُ له: حزقيائيل، ثمانيةَ عَشَر ألفَ جَناحٍ، ما بين الجَناحِ إلى الجَناحِ خمسُ مئةِ عامٍ، ثم أَوْحَى اللهُ إليهِ: أيُّها الملَكُ طِرْ، فطار عشرينَ ألفَ سنةٍ ثم لم يَنَلْ رأسُه قائمةً من قوائمِ العرشِ، ثم زادَ اللهُ له في الجناحِ والقوَّةِ وأَمَره أنْ يطيرَ، فطارَ مِقدارَ ثلاثينَ ألفَ سنةٍ فلَمْ يَنَلْها، فأَوْحَى اللهُ إليه: أيُّها الملَكُ، لو طِرْتَ إلى نَفْخِ الصُّورِ مع

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٦٨).

(٢) انظر: «الكشاف» (٤/ ١٥٢). وهذا قطعة من خبر ذكره الثعلبي في «عرائس المجالس» (ص٢٢) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، والله أعلم بصحته، ولو ثبت فليس بمرفوع ولا موقوف حتى يصلح للاحتجاج به في مثل هذه الأمور.

(٣) الذي في «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٦٧) هو العبارة الأولى فقط، ثم باقي الخبر عنده مختلف عما هنا، وباقي الخبر هنا من قوله: (في الرأسِ ألفُ ألفِ وجهٍ...) ذكره أبو الحسن علي بن ناصر الدين محمد بن محمد المنوفي المصري الشاذلي المتوفى سنة (٩٣٩) في «كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني» (١/ ٥٧) بلا سند أو عزوٍ.

أجنحتِكَ وقوَّتِكَ لم تبلُغْ ساقَ عَرْشي، فقال الملَكُ: سبحانَ ربِّيَ الأعلى، فأَنْزلَ اللهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ فقال ﷺ: «اجْعَلُوها في سُجودِكم»[1].

وحكَى الثعلبيُّ في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]: حدثنا جعفرُ بنُ محمدٍ عن أبيهِ عن جدِّه أنه قال: في العرشِ مثالُ ما خلَقَ اللهُ في البرِّ والبحرِ، وهو تأويلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[2].

وحكَى أيضاً عن عليِّ بنِ الحسين: أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ العرشَ، ثم جَعَله سبعينَ ألفَ ألفِ طبقٍ، ليس من ذلكَ طبقٌ إلا يسبِّحُ اللهَ ويمجِّده ويقدِّسُ بأصواتٍ مختلفةٍ[3].

وعن كعبِ الأحبارِ أنَّه قال: لـمَّا خَلَقَ اللهُ العرشَ قال: لن يخلُقَ اللهُ خَلْقاً أعظمَ منِّي، فاهتزَّ فطوَّقهُ بحيَّةٍ وللحيَّةِ سبعونَ ألفَ جَناحٍ، وفي الجَناحِ سبعون ألفَ ريشةٍ، في كلِّ ريشةٍ سبعونَ ألفَ وجهٍ، في كلِّ وجهٍ سبعونَ ألفَ لسانٍ، يخرجُ من أفواهِها في كلِّ يومٍ من التَّسبيحِ عَدَدَ قَطْرِ المطَرِ، وعدَدَ ورقِ الشَّجرِ، وعدَدَ الحصَى والثَّرَى، وعدَدَ أيامِ الدُّنيا، وعدَدَ الملائكةِ أجمعِينَ، فالْتَوَتِ الحيَّةُ بالعرشِ، فالعرشُ إلى نصفِ الحيةِ[4]، كذا قيل، واللهُ تعالى أَعْلَم.

* * *

(١) ذكره الثعلبي في (ص٢٢ ـ ٢٣) عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده، وقد تقدم قريباً بداية الخبر والذي هنا هو تتمته، ومثله لا يحتج به.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٥/ ٣٣٦)، وليس فيه كلمة: (حدثنا).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٨).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، ولا شك أن هذا من الإسرائيليات التي يرويها كعب عن أهل الكتاب.

فصلٌ
في حملةِ العرشِ

قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ [غافر: ٧] وفي عددِهم قولان:

فقيل: أربعةُ أملاكٍ، وهذا مرويٌّ عن النبيِّ ﷺ[١]، فإذا كان يومُ القيامةِ كانوا ثمانيةَ أملاكٍ، حكاهُ غيرُ واحدٍ من المفسِّرين[٢].

وقيل: إنَّهم اليومَ ثمانيةٌ، وهذا مرويٌّ أيضاً عن النبيِّ ﷺ من حديثِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ، خرَّجهُ التِّرمذيُّ وأبو داودَ[٣].

وحمَلَ ابنُ عباسٍ قولَه تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ أنهم يومَ القيامةِ ثمانيةُ صُنوفٍ من الملائكةِ لا يَعلمُ عددَهم إلَّا اللهُ[٤].

---

(١) يشير إلى ما رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٦٠١٣)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٣١٤)، والدارمي في «سننه» (٢٧٠٣)، عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: صَدَّقَ النبيُّ ﷺ أُميَّةَ بنَ أبي الصَّلْتِ في شيء من شعره فقال:

رَجُـلٌ وَثَـوْرٌ تَحْـتَ رِجْـلِ يَمِينِـهِ
والنَّسـرُ للأخـرى وليـثٌ مرصَّـدُ

فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ» الحديث. وذكره ابن كثير في تفسير الآية السابعة من سورة غافر وقال: وهذا إسناده جيد وهو يقتضي أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾.

(٢) انظر التعليق السابق، وروى الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ٥٩) عن ابن إسحاق قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «هم اليوم أربعة» يعني: حملةَ العرش «وإذا كان يوم القيامة أيدهم الله بأربعة آخرين فكانوا ثمانية، وقد قال الله: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾».

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٧٠)، وأبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وإسناده ضعيف. انظر الكلام عليه في حاشية «المسند» و«السلسلة الضعيفة» (١٢٤٧).

(٤) رواه ابن أبي شيبة في «العرش» (٣٣)، وفي بعض المصادر عن ابن عباس: (ثمانية صفوف). انظر: =

وأمَّا صفتُهم: فعن أبي داودَ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أُذِنَ لي أنْ أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من ملائكةِ اللهِ مِن حمَلةِ العرشِ، ما بينَ شَحْمةِ أُذنهِ إلى عاتِقِه مسيرةُ سبعِ مئةِ عامٍ»[(١)].

وحكَى الثعلبيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ أنه قال: حملةُ العرشِ ما بينَ كعبِ أحدِهم إلى أسفلِ قدميهِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ[(٢)].

وقال ابنُ عَباسٍ: لـمَّا خلَقَ اللهُ حَمَلةَ العرشِ قال لهم: احْمِلوا عَرْشي، فلم يُطِيقوا، فخَلَقَ مع كلِّ مَلَكٍ منهم من الأعوانِ مِثْلَ جنودِ سبعِ سماواتٍ وسبعِ أَرَضِينَ وما في الأرضِ مِن عَدَدِ الحَصَى والثَّرَى، فقال: احْمِلوا عَرْشي فلَمْ يُطِيقوا، فقال: قولوا: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ، فقالُوها فاستَقَلُّوا بعرشِ ربِّنا، فنفَذَتْ أقدامُهم في الأرضِ السابعةِ على مَتْنِ الثَّرى فلَمْ تَستقِرَّ، فكتبَ في قدَمِ كلِّ مَلَكٍ منهم أسماءً من أسمائهِ تعالى فاستَقرَّتْ أقدامُهم[(٣)].

قلتُ: إذا علمتَ ذلك فالحاملُ للعرشِ في الحقيقةِ إنَّما هو اللهُ تعالى، وما خَلَق حملةَ العرشِ لحاجةٍ إليهم لحَمْلِ عرشه، ولا اللَّوحَ والقلمَ لضبطِ معلوماتِهِ، بل هو مُسْتغنٍ عن ذلك غيرُ محتاجٍ لشيءٍ من مخلوقاته، وإنما ذلك حِكَمٌ دالَّةٌ على كمالِ قُدرتِهِ ووجوبِ وحدانيَّتِهِ، لا إلهَ إلا هو يَفعلُ ما يشاءُ ويَحْكُمُ ما يُريدُ.

= «إعراب القرآن» للنحاس (٥/ ٢٢)، و«تفسير الثعلبي» (١٠/ ٢٨).

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٧)، وصححه الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٦٦٥).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٦٦). ورواه ابن أبي شيبة في «العرش» (٢٦).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦٦) من طريق الضحاك عن ابن عباس، والضحاك لم يسمع من ابن عباس.

ورُوِي أنَّ لكلِّ واحدٍ من حملةِ العرشِ أربعةَ أوجُهٍ: وَجْهَ ثورٍ، ووَجْهَ أسدٍ، ووجهَ نسرٍ، ووَجْهَ إنسانٍ، وله أربعةُ أجنحةٍ: فجناحانِ على وجههِ مخافةَ أنْ يَنظرَ إلى العرشِ فيَحترِقَ وجناحان يطيرُ بهما، ليس لهم كلامٌ إلا التسبيحُ والتكبيرُ والتَّمجيد(١).

***

فصلٌ
في الملائكةِ الذين حولَ العرشِ

قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ [غافر: ٧] قال وهبُ بنُ منبِّهٍ: حولَ العرشِ سبعونَ ألفَ صفٍّ من الملائكةِ، صفًّا خَلْفَ صفٍّ يَدُورونَ حولَ العرشِ يطوفونَ به، يُقْبِلُ هؤلاء ويُدْبِرُ هؤلاء، فإذا استَقْبَل بعضُهم بعضاً هلَّلَ هؤلاء وكبَّرَ هؤلاء، مِن ورائهِم سبعونَ ألفَ صفٍّ قيام، أيديهِم إلى أعناقِهم قد وضعُوها على عَوَاتِقِهم، فإذا سَمِعوا تكبيرَ هؤلاء وتهليلَهم رفَعوا أصواتَهم فقالوا: سبحانَكَ وبحمدِكَ ما أَعْظمكَ وأجلَّكَ! أنتَ اللهُ لا إلهَ إلَّا أنتَ الكبيرُ الأكبرُ، الخَلْقُ كلُّهم راجُونَ رحمتَكَ، ومِن وراءِ هؤلاءِ مئةُ ألفِ صفٍّ من الملائكةِ قد وضَعوا اليُمْنى على اليُسْرى، ليس منهُم أحدٌ لا يُسبِّحُ بتسبيحٍ ما يسبِّحُه الآخَرُ، ما بينَ جناحَيْ أحدِهم مسيرةُ ثلاثِ مئةِ عامٍ، وما بينَ شحمةِ أُذنهِ إلى عاتقهِ مسيرةُ أربعِ مئةِ عامٍ، واحْتجَبَ اللهُ تعالى بينَهُ وبينَ الملائكةِ الذين هم حولَ العرشِ بسبعينَ جناحاً من نُورٍ، وسبعينَ حِجاباً من ظُلْمةٍ، وسبعينَ حجاباً من دُرٍّ أبيضَ، وسبعينَ حجاباً من

---

(١) التسبيح والتكبير والتمجيد من الملائكة مما لا خلاف فيه، وأما ما قبله من ذكر الرؤوس والأجنحة فمما لا شك فيه أيضاً أنه من خرافات الإسرائيليات.

ياقوتٍ أحمرَ، وسبعينَ حجاباً من زمرُّدٍ أخضرَ، وسبعينَ حجاباً من ثلجٍ، وسبعينَ حجاباً من بَرَدٍ، وما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى(١).

وقال يزيدُ الرَّقَاشيُّ: إنَّ للهِ ملائكةً حولَ العرشِ يُسمَّون: المخْلَصِين، تَجْرِي أعينُهم مِثْلَ الأنهارِ إلى يومِ القيامةِ، يَميدُونَ كأنَّها تنفضُهم الرياحُ من خَشْيةِ اللهِ تعالى، فيقولُ لهم الربُّ عزَّ وجلَّ: ملائكَتِي ما الذي يُخِيفُكم؟ فيقولون: ربَّنا لو أنَّ أهلَ الأرضِ اطَّلَعوا من عزَّتكَ وعظَمتِكَ على ما اطَّلَعْنا عليه ما ساغُوا طعاماً ولا شراباً ولا انْبَسطُوا في فُرُشِهم، وخَرَجوا إلى الصَّحراءِ يَخورونَ كما يَخُورُ الثَّورُ(٢). واللهُ أعلم.

* * *

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤) من طريق عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه عن كعب. وعبد المنعم بن إدريس قال عنه أحمد بن حنبل كما في «الميزان»: كان يكذب على وهب بن منبه، وقال البخاري: ذاهب الحديث. وقال ابن حبان: يضع الحديث على أبيه وعلى غيره.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٦٧). والرقاشي قاص زاهد ضعيف.

بابٌ

في الكرسيِّ وحقيقتِه

قال اللهُ تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهو ثابتٌ بالكتابِ والسنَّةِ وإجماعِ الأمَّةِ، إلَّا أنَّ العلماءَ اخْتَلفوا فيهِ على أقوالٍ:

وقيل: إنَّه مخلوقٌ عظيمٌ مستقِلٌّ بذاتِهِ، وهو قولُ الجمهورِ.

وقيل: إنَّ الكرسيَّ هو العرشُ بذاتِهِ، وهو قولُ الحسنِ البَصْريِّ.

وقيل: أنَّ المرادَ بالكرسيِّ: السُّلطانُ والقدرةُ.

وقيل: إنَّ الكرسيَّ هو العلمُ.

وقيل: إنَّ المرادَ منه تصويرُ عَظَمةِ اللهِ وكِبْريائِهِ، وهو قولُ القَفَّالِ.

وقيل: إنَّه مَوضِعُ القَدَمينِ، رواهُ ابنُ جُبيرٍ عن ابنِ عبَّاسٍ(١).

قال الإمامُ الفخرُ: وقد دلَّتِ الدَّلائلُ على نَفْيِ الجِسْميَّة، فوَجَبَ ردُّ هذهِ الرِّوايةِ، أو حملُها على أنَّ المرادَ بها موضعُ قدَمِي الرُّوحِ الأعظمِ، أو مَلَكٍ آخَرَ عظيمِ القَدْرِ عندَ اللهِ تعالى(٢).

والصَّحيحُ الأوَّلُ، وقد جاءَ في الحديثِ ما ظاهِرُه ذلك، وهو قولُ المحقِّقِين من العلماءِ.

وأمَّا موضعُه: فقال الإمامُ الفخرُ: جاء في الأخبارِ الصَّحيحةِ أنَّه جسمٌ عظيمٌ تحتَ العرشِ وفوقَ السَّماءِ السَّابعةِ(٣).

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٦٠١).

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٧/ ١٣).

(٣) انظر: «تفسير الرازي» (٧/ ١٣).

وأمَّا صِفَتُه: فقال أبو مُوسى الأشعريُّ والسُّدِّيُّ وغيرُهما: هو لؤلؤٌ، وما السَّماواتُ السبعُ في الكرسيِّ إلَّا كدراهمَ سبعةٍ أُلْقِيَتْ في تُرْسٍ[١].

وهو مشتمِلٌ بعظَمتِهِ على السَّماواتِ والأرضِ، وفي حديثِ أبي ذرٍّ السابقِ: «وما السَّماواتُ السَّبْعُ مع الكرسيِّ إلَّا كحَلْقةٍ مُلْقاةٍ بأرضٍ فَلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكرسيِّ كفَضْلِ الفلاةِ على الحَلْقةِ»[٢].

وأمَّا قوائمُه: فقال عليٌّ ومقاتلٌ رضي الله عنهُما: كلُّ قائمةٍ من قوائمِ الكرسيِّ طولُها مثلُ السَّماواتِ السَّبعِ والأرضينَ السبعِ، وهو بينَ يدي العرشِ[٣].

وقال وَهْبُ بنُ مُنبِّهٍ: للكرسيِّ أربعُ قوائمَ كلُّ قائمةٍ منها مِثْلُ السماواتِ والأرضِ، وجميعُ السَّماواتِ والأرضِ والدُّنيا والآخرةِ وكلُّ ما خَلَقَ اللهُ في الكرسيِّ كمَثَلِ حبَّةِ خَرْدلٍ في كفِّ أحدِكم[٤].

وأمَّا حَمَلتُه: فعن عليٍّ ومُقاتلٍ رضي الله عنهما: أنَّ الذين يحملونَ الكرسيَّ أربعةُ أملاكٍ، لكلِّ مَلَكٍ أربعةُ وجوهٍ، أقدامُهم في الصَّخرةِ التي تحتَ الأرضِ السَّابعةِ السُّفْلَى مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ[٥].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٣٢).

(٢) تقدم قريباً.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٣٣).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٣) من طريق عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه. وقد تقدم الكلام على هذا الإسناد قريباً.

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٣٣). وذكره أبو الليث في «تفسيره» (١/ ١٩٥) عن الكلبي ومقاتل. وهو من الإسرائيليات، ولعله مكذوب على علي رضي الله عنه.

وجاء في بعضِ الأخبارِ: أنَّ بينَ حَمَلةِ العرشِ وحَمَلةِ الكرسيِّ سبعينَ حِجاباً من ظُلمةٍ وسبعينَ حجاباً من نورٍ، وغِلَظُ كلِّ حجابٍ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ، لولا ذلكَ لاحْتَرقَتْ حَمَلةُ الكرسيِّ من نورِ حملةِ العرشِ. حكاهُ الثَّعلبيُّ[1]، واللهُ أعلم.

***

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٢/ ٢٣٣)، ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٤٥) عن الحسن في خبر طويل زاخر بأمثال هذه العجائب.

بابٌ
في ذكرِ السَّماوات

قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ [ق: ٦].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١].

إلى غيرِ ذلك مِن الآيات.

وقد اختَلَف المفسِّرون: هل السَّماءُ مخلوقةٌ قبلَ الأرضِ أو بعدَها، فذهَبَ ابنُ عبَّاسٍ: أنَّ الأرضَ خُلِقَتْ قبلُ، وبه قال الزَّمخْشريُّ وجماعةٌ مِن أهلِ العلم(١).

قال ابنُ عباسٍ خلقَ اللهُ الأرضَ بأقواتها ـ مِن غيرِ أنْ يَدْحُوَها ـ قَبْلَ السماءِ، ثم اسْتَوَى إلى السماءِ فسوَّاهنَّ سبعَ سماواتٍ، ثم دَحَى الأرضَ بعدَ ذلك(٢). أي: بَسَطها.

وهذا الذي قالهُ هو ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

وقال أهلُ التفسيرِ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠]: أي: خَلَق الأرضَ وجبالَها في الأحدِ والإثنينِ، وما فيها من الأقواتِ في الثُّلاثاءِ والأربعاء.

وقالوا في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١]: إنَّ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيب، وقولُه: ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ هما يومُ الخميسِ ويومُ الجمعةِ..إلخ، فإنَّ فيه خُلق آدمُ عليه السلام.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٤/ ١٨٩).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

وفي «مسلم» عن أبي هريرةَ قال: أَخَذ رسولُ اللهِ ﷺ بيدِي فقال: «خلَق اللهُ التربةَ يومَ السَّبتِ وخَلَق ما فيها من الجبالِ يومَ الأحدِ، وخلَق الشجرَ ـ ورواية الخير[1] ـ يومَ الإثنينِ، وخلَقَ المكروهَ يومَ الثُّلاثاءِ، وخلَق النورَ يومَ الأربعاءِ، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميسِ، وخلَق آدمَ بعدَ العصرِ يومَ الجمعةِ، آخِرَ الخَلْقِ وآخِرَ ساعةٍ من النَّهارِ فيما بينَ العصرِ إلى اللَّيل»[2].

ومذهبُ قومٍ آخَرين: أنَّ السماءَ خُلِقتْ قبلَ الأرضِ، وأنَّ لفظةَ ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ ليستْ للترتيبِ بل لتعديدِ النِّعَم، كما يقولُ الرجلُ لغيرِه: أليسَ قد أعطيتُكَ النِّعَمَ العظيمةَ ثم رَفَعْتُ قَدْرَكَ، ثم دفَعْتُ الخصومَ عنكَ.

وأجاب بعضُهم عن قولِهِ تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]: أنَّ ﴿بَعْدَ﴾ بمعنى: مع، كقولِهِ تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]؛ أي: مع ذلك، وهذا اختيارُ الإمامِ فخرِ الدِّين[3].

وهو مذهبُ مقاتلٍ، فعن مقاتلٍ: أنَّ السماءَ خُلقتْ يومَي الأحدِ والإثْنينِ[4].

وقد عَلِمْتَ ممَّا مرَّ أنَّ مذهبَ ابنِ عباسٍ وغيرِه أنَّ السماءَ إنما خُلِقتْ يومَي الخميسِ والجمعةِ.

---

(١) قوله: «ورواية الخير» كذا وقعت هذه العبارة معترضة، فإن أراد أنها رواية فلم أجدها.

(٢) رواه مسلم (٢٧٨٩)، ورواه أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (٨٣٤١)، وانظر في حواشيه كلام العلماء في هذا الحديث، وأن الأصح فيه أنه من كلام كعب الأحبار. وقد نبه الآلوسي إلى إشكال فيه من حيث المعنى فقال في «روح المعاني» (٩/ ١٣٥): (ولا يخفى أن هذا الخبر مخالف للآية الكريمة، فهو إما غير صحيح ـ وإن رواه مسلم ـ وإما مؤول).

(٣) انظر: «تفسير الرازي» (٣١/ ٤٦).

(٤) انظر: «تفسير مقاتل» (٣/ ١٦٢)، و«زاد المسير» (٧/ ٢٤٦).

ورُوِيَ أنَّه فرَغَ منها في السَّاعةِ الأخيرةِ من يومِ الجمعةِ، فخَلَق فيها آدمَ، وفيها تقومُ الساعةُ.

وأخرج أبو الشيخِ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «خلَقَ اللهُ الجنَّةَ والنارَ يومَ الجمعةِ»[1].

وأخرجَ عن ابنِ عباسٍ قال: إنَّ اللهَ خلَقَ الجنةَ قبْلَ النارِ، وخَلَق رحمتَه قبْلَ غضبِهِ[2].

وذكَر المفسِّرون في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢]؛ أي: أَتمَّ صُنعهُنَّ وأحكَمَهنَّ وفَرَغ مِن خَلْقِهنَّ ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ [فصلت: ١٢].

وقال السُّدِّيُّ وقتادةُ: خَلَق فيها شمسَها وقَمَرَها ونُجومَها، وخَلَق في كلِّ سماءٍ خَلْقَها مِن الملائكةِ والبحارِ وجبالِ البَرَدِ وما لا يعلمُه إلَّا اللهُ[3].

وذكر المفسِّرون في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: عَمَدَ وتَوجَّه إلى خَلْقِها وتَسوِيتها، ﴿وَهِيَ دُخَانٞ﴾ وهو بخارُ الماء، وذلك أنَّه سبحانهُ وتعالى لـمَّا خلَقَ الأرضَ أرسَلَ عليها الماءَ، فارتَفَع له بخارٌ كالدُّخانِ.

وقيل: كان عرشُه على الماءِ، فخَلَق مِن ذلك الماءِ بخاراً، فارتَفَع فيَبِسَ الماءُ، فجَعَله أرضاً واحدةً ثم فتَقَها أرضَينِ، ثم خَلَقَ السماءَ من ذلك البخارِ.

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٧٠).

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٧٢) من طريق عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب عن ابن عباس. وقد تقدم الكلام على هذا الإسناد.

(٣) رواه عنهما الطبري في «تفسيره» (٢٤/ ٩٩).

وقيل: إنَّه تعالى لـمَّا خلَق الأرضَ أرسَلَ عليها ناراً، فارتَفعَ لها دخانٌ فخَلَق السماءَ منه.

وذكر المفسِّرون في قولهِ تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ أي: ائْتِيَا بكلِّ ما خَلَقْتُ فيكُما مِن المنافِعِ والمصالِحِ وأَخْرِجاها لخَلْقي.

قال ابنُ عباسٍ: قال اللهُ للسماواتِ: أَطْلِعي شمسَكِ وقَمَرَكِ ونجومَكِ، وقال للأرضِ: شُقِّي أنهارَكِ وأَخْرِجي ثمارَكِ طائعةً أو كارهةً، فقالتا: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

قال الثَّعلبيُّ: بلَغَنا أنَّ بعضَ الأنبياءِ قال: يا ربِّ، لو أنَّ السماواتِ والأرضَ حين قُلتَ لهما: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ عصَتَاكَ، ما كُنتَ تَفعلُ بهما؟ قال: كنتُ آمُرُ دابَّةً مِن دَوابِّي فتبتَلِعَهما، قال: أين تلك الدابَّةُ؟ قال: في مَرْجٍ مِن مُروجِي، قال: يا ربّ! وأينَ ذلك المرجُ؟ قال: في عِلْمٍ من عُلُومِي[2].

***

فصلٌ
في مقدارِ ما بينَ كلِّ سماءٍ وسماءٍ

قال اللهُ تعالـى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠].

قـال ابنُ عبـاسٍ وعطاءٌ والضحَّـاكُ وقَتَادةُ: إنَّهما كانَتَا شـيئاً واحـداً ملتزِمَتينِ، ففَصَـل اللهُ بينَهما بالهواء.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٨٧). ورواه الحاكم في «المستدرك» (٧٣) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ٢٨٧).

وقال كعبُ الأحبارِ: خلَقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ بعضَها على بعضٍ، ثم خَلَقَ ريحاً توَسَّطتْها ففتَقَها [بها].

وقال مجاهدٌ وأبو صالحٍ والسُّدِّيُّ: كانتِ السماواتُ متآلِفةً طبقةً واحدةً، ففَتَقَها فجَعَلَها سبعَ سماواتٍ[1].

قلتُ: لا خلافَ بينَ هذهِ الأقوالِ بحسَبِ الحقيقة.

إذا تَقَرَّرَ هذا: فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه: أنَّ ما بينَ سماءٍ إلى سماءٍ خمسُ مئةِ سنةٍ، خرَّجه التِّرمذيُّ[2]، وأَخرجَ مثلَه البزَّارُ بسندٍ صحيحٍ عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ[3].

وفي حديثِ ابنِ مسعودٍ: وغِلَظُ كلِّ واحدةٍ مسيرةَ خمسِ مئةِ سنةٍ[4].

وفي حديثِ العبَّاسِ بنِ عبد المطَّلِبِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أَتَدْرون ما بينَ السماءِ والأرضِ؟» قالوا: لا واللهِ لا ندري! قالَ: «فإنَّ بُعْدَ ما بينَهما ـ إمَّا قال: واحدةٌ، وإمَّا: ثِنْتانِ، وإمَّا: ثلاثٌ ـ وسبعونَ سنةً»، خرَّجه التِّرمذيُّ[5].

---

(١) انظر هذه الأقوال في «تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٧٤)، وما بين معكوفتين منه.

(٢) قطعة من حديث طويل رواه الترمذي (٣٢٩٨) وأشار إلى تضعيفه بقوله: حديثٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ، ويُرْوَى عن أيُّوبَ ويُونُسَ بنِ عُبَيدٍ وعليِّ بن زيدٍ، قالوا: لم يَسْمعِ الحسنُ مِن أبي هريرةَ.

(٣) رواه البزار (٢٠٨٧ ـ كشف)، وليس إسناده صحيحاً كما ذكر، وسيأتي تخريجه وتفصيل الكلام عليه في (باب في ذكر الأرض).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٨/ ١٥٣).

(٥) رواه الترمذي (٣٣٢٠)، وإسناده ضعيف. وقد تقدم تخريجه والكلام عليه في (فصل في حملة العرش).

وفي «سنن ابن ماجه»: «ما بينَ السماءِ والأرضِ مسيرةُ ثلاثةٍ وسبعينَ سنةً أو نحوُها، وكذا بين كلِّ سماءٍ وسماءٍ»[١].

قال بعضهم: إنه حديثٌ صحيحٌ، وهو موافقٌ لِمَا دلَّ عليه علمُ الهيئةِ بأنَّ بينَ السماءِ والأرضِ ثمانينَ سنةً، مسافةُ كلِّ يومٍ منها ثلاثونَ مِيلاً إذا صَعِدْتَ على استواءٍ.

قال: وما يذكُرُه الناسُ مِن أنَّ بينَهُما خمسَ مئةِ عامٍ لا صحةَ له ولا دليلَ عليه. انتهى.

قلتُ: بل الصَّوابُ صحَّتُه لِمَا مرَّ، والجمعُ بينَ القولينِ: أنَّ هذا محمولٌ على سَيرٍ فيه سرعةٌ، وذاكَ محمولٌ على سَيرٍ لا سرعةَ فيه، واللهُ سبحانهُ أعلمُ.

وأمَّا عددُ السماواتِ فسبعٌ بالكتابِ والسُّنَّة؛ قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦] وقال تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

وذهبَ أهلُ الهيئةِ إلى أنَّ الأفلاكَ تسعةٌ[٢]: فلَكُ القمرِ، وفلَكُ عُطاردٍ، وفلَكُ الزُّهَرةِ، وفلَكُ الشَّمسِ، وفلَكُ المرِّيخِ، وفلَكُ المشتري، وفلَكُ زُحَلَ، وفلَكُ الكواكِبِ الثَّابتةِ، والفلَكُ الأعظمُ، ويسمَّى: الأطلسَ.

وإلى إثباتِ هذهِ الأفلاكِ ذهبَ الإمامُ الفخرُ عملاً على الرَّصْدِ، وعلى أنَّ التَّنصيصَ على عددِ السَّماواتِ لا يدلُّ على نَفْيِ الزَّائدِ.

---

(١) رواه ابن ماجه (١٩٣)، وهو كالحديث السابق سنداً ومتناً.

(٢) يوجد هنا خلط بين السماوات السبع التي لا يعلم كنهها إلا الله، وبين الكواكب المعروفة التي اكتشفها العلماء، وهي كواكب مجموعتنا الشمسية. وكذا يظهر من كلام الرازي الآتي.

قال: وأمَّا ترتيبُ الأفلاكِ: فأقربُها إلينا الدُّنيا، ثم يَلِيها السماءُ الثَّانيةُ، ثم كذلك إلى آخِرِها.

وحَكَى عن أهلِ الهيئةِ التَّرتيبَ المتقدِّمَ، وبيَّنَ أنَّ أقربَها إلينا كرةُ القمرِ، وفوقَها كرةُ عُطارِد، ثم كرةُ الزُّهَرة، ثم كرةُ الشَّمسِ، ثم كرةُ المرِّيخِ، ثم كرةُ المشترِي، ثم كرةُ زُحَل.

تنبيهٌ: قال الإمامُ فخرُ الدِّينِ: الفلَكُ في كلامِ العربِ: كلُّ شيءٍ دائرٍ، وجمعُه: أفلاكٌ، وفيه قولان:

فقيل: إنَّها أجسامٌ تدورُ عليها النُّجومُ، قاله أكثرُ المفسِّرين.

وقيل: إنَّه ليس بجسمٍ وإنَّما هو مِدَادُ النُّجوم.

وإذا قُلْنا بالقولِ الأوَّلِ ففي كيفيتِهِ أقوال:

فقيل: إنَّ الفلَكَ موجٌ مكفوفٌ؛ أي: مجموعٌ تَجْري فيه الكواكبُ.

وقال جمهورُ الفلاسفةِ وأهلِ الهيئةِ: هي أجرامٌ صُلْبةٌ لا ثقيلةٌ ولا خفيفةٌ، غيرُ قابلةٍ للخرقِ والالْتِئام[1].

والحقُّ ما قالهُ الإمامُ فخرُ الدِّين: أنَّه لا سبيلَ إلى معرفةِ السَّماواتِ إلا بالخبرِ[2]؛ لأنَّ ذلك غيبٌ.

وقد قال القاضي ابنُ العربيِّ: إنَّ ذاتَ السماءِ لا تُرَى، إنَّما يُرَى الهواءُ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٢٢/ ١٤١).

(٢) المصدر السابق.

لطيفةٌ: مِن فضلِ السَّماءِ أنَّ اللهَ زيَّنَها بسبعةِ أشياءَ: بالنُّجومِ، والشَّمسِ، والقمرِ، والعرشِ، والكُرسيِّ، واللَّوحِ، والقلمِ، وجعَلَها قِبلةً للدُّعاءِ، وجعَلَ الأيدِيَ تُرفَعُ إليها، وقدَّمَ ذِكْرَها على الأرضِ في أكثرِ الآياتِ، وذَكَرَ السَّماواتِ بلفظِ الجمعِ والأرضَ بلفظِ الإفرادِ، وجعَلَ لونَها أخضرَ وهو أَمْثَلُ الألوانِ للبصرِ وتَقْويةٌ له، قاله الأطباءُ، ولذلك يأمُرونَ مَن به وجعُ العينِ أنْ يَنظُرَ إلى الورقةِ الخضراءِ، فجَعلَ اللهُ أديمَ السماءِ أزرقَ ونفعاً للأبصار وتقويةً لها[١]، وجَعَل شكلَها مستديراً وهو أفضلُ الأشكالِ.

فعنِ ابنِ عباسٍ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] قال: ذاتِ البهاءِ والجَمَال[٢].

وقال الحسنُ: ذاتِ الخَلْقِ الحسَنِ محبكٌ بالنجوم[٣].

وقال أبو صالحٍ: ذاتِ الخَلْقِ السَّديدِ[٤].

---

(١) كذا ذكر أن لونها أزرق، وقبل قليل أنه أخضر، وذكر في كليهما أنه تقوية للبصر، وذكر الرازي في «تفسيره» ـ وعنه نقل المؤلف هذه الزينات ـ الأزرقَ فقط ولم يتعرض للأخضر، ولفظه: (تفكَّر في لون السماء وما فيه من صواب التدبير، فإن هذا اللون أشد الألوان موافقة للبصر وتقوية له، حتى إن الأطباء يأمرون من أصابه وجع العين بالنظر إلى الزرقة، فانظر كيف جعل الله تعالى أديم السماء ملوناً بهذا اللون الأزرق، لتنتفع به الأبصار الناظرة إليها، فهو سبحانه وتعالى جعل لونها أنفع الألوان، وهو المستنير). وهذا كلام واضح لا لبس فيه بخلاف عبارة المؤلف القلقة المتناقضة، ولعل بعضها ملغى لكن لم يقع ذلك في النسخة التي بين أيدينا.

(٢) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٥).

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٦) بلفظ: (...مجملة بالنجوم).

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٤٤) بلفظ: (ذات الخلق الشديد).

وجعَلها تعالى مَنْزِلَ الأبرارِ، ومحلَّ الصَّفاءِ والطَّهارةِ والعِصْمةِ والعبادِ المكرَمِينَ، ففي حديثِ المعراجِ: أنَّه ﷺ رأى آدمَ في سماءِ الدُّنيا، وعيسى ويَحْيَى في الثَّانية، ويوسُفَ في الثَّالثةِ، وإدريسَ في الرابعةِ، وهارونَ في الخامسةِ، وإبراهيمَ في السَّادسةِ مُسْنِداً ظهرَه إلى البيتِ المعمورِ، كذا في «مُسلمٍ»[1].

وفي «البخاري»: «وموسَى في السَّماءِ السَّابعة بتفضيلِ كلامِ اللهِ تعالى»[2]، صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين.

* * *

(١) رواه مسلم (١٦٢/ ١٥٩) لكن في هذا السياق أن الذي في السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم. والذي فيه إبراهيم في السادسة ورد عنده بسياق آخر، حيث رواه برقم (١٦٣)، ولفظه: (فقال أنسُ ابنُ مالكٍ، فذَكَرَ أنَّه وَجدَ في السَّماواتِ آدمَ، وإدريسَ، وعيسَى، وموسى، وإبراهيمَ صلواتُ اللهِ عليهِم أجمعينَ، ولم يُثْبِتْ كيف مَنازِلُهم، غَيْرَ أنَّه ذَكَرَ أنَّه قد وَجدَ آدمَ عليه السَّلامُ في السَّماءِ الدُّنيا، وإبراهيمَ في السَّماءِ السَّادسةِ).

(٢) رواه البخاري (٧٥١٧).

بابٌ
في ذكرِ الشَّمسِ

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [نوح: ١٦]، إلى غيرِ ذلك من الآيات.

وقد اختلفَ العلماءُ فيما خُلقَتْ منه الشَّمسُ:

فقيل: مِن نورِ العرشِ.

وقيل: مِن نارٍ.

وقيل: إنَّها مَلَكٌ أجوفُ مملوءٌ ناراً يَخرجُ منه هذا الوَهجُ والشُّعاعُ.

وقيل: إنَّها سحابةٌ ملتهِبةٌ ناراً.

وقيل: هي أجزاءٌ كثيرةٌ من نارٍ محرِقةٍ.

وقيل: هي جوهرٌ خامسٌ زائدٌ على العناصرِ الأربعةِ.

وقالتِ الفلاسفةُ: هي اجتماعُ أجزاءٍ ناريَّةٍ تدفعُها البحارُ.

قلتُ: والصَّحيحُ الأوَّلُ؛ لِمَا رَوَى الثعلبيُّ عن ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى لمَّا أَبْرمَ خَلْقَه فلمْ يَبْقَ مِن خَلقِه غيرُ آدمَ، خَلَق شمسَينِ من نورِ عرشِه، فأمَّا ما كانَ في سابقِ علمِه أنَّه لا يطمسُها فخَلَقها مِثْلَ الدُّنيا ما بينَ مَشارِقها ومَغارِبها، وما كان في سابِقِ علمِه أنَّه يطمسُها ويحوِّلُها قمراً فخَلَقها دونَ الشَّمسِ في العِظَم، ولكنْ إنما يُرى صغرُها من شدَّة ارتفاعِ السماءِ وبُعْدِها من الأرض، ولو تَرَك الشمسَ والقمرَ كما خلَقَهما لم يُعرفِ اللَّيلُ من النَّهار» الحديثَ[1]، وستأتي تتمَّتُه.

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٨٨)، وهذه قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٤٧ ـ ٥٢) =

فأمَّا شكلُها: فاختلفُوا فيه:

فقيل: إنه بمنزلةِ صَحْفةٍ عريضةٍ.

وقيل: كالصَّحْفةِ المعكوفة.

وقيل: إنها كالكُرةِ المدحْرَجةِ.

وأمَّا مقدارُها: فاختلَفُوا فيه:

فقيلَ: إنَّها مِقدارُ قَدَمِ إنسانٍ.

وقال أهلُ الهندسةِ: إنَّها أضعافُ الأرضِ مئةً وعشرينَ مرَّةً، وقيل: مئةً وخمسين، وقيل: مئةً وستِّين، وقيل: مئتَينِ.

والقمرُ بقَدْرِ الدُّنيا ثمانينَ مرةً.

وقال أهلُ التَّعديلِ: مِثْلُ الأرضِ سواءٌ.

قلتُ: وهذا هو الموافقُ لحديثِ الثعلبيِّ السابقِ، وكان يختلجُ بصَدْري أنَّ هذا ونحوَه يُشْكِلُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦] فأيُّ عينٍ[1] تَسَعُ ما هو قَدْرُ الأرضِ، إنَّما يَسَعُها البحرُ لا العَينُ، حتى رأيتُ في «تفسير الكَوَاشيِّ» وغيرِه: ليس المرادُ أنَّ الشمسَ تغيبُ في نَفْسِ العينِ حقيقةً، وإنما ذلك

= من طريق أبي نعيم (واسمه: عمر بن صبح)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١١٦٣ ـ ١١٦٨) من طريق أبي عصمة نوح بن أبي مريم، كلاهما عن مقاتل بن حيان عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً، ولا يصح؛ فإن عمر بن صبح متروك كذبه ابن راهويه، وكذلك أبو عصمة، كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(١) «فأي عين» وقعت في (ز) مكررة.

في رَأْيِ العينِ؛ كراكِبِ البحرِ يَعتقِدُ أنَّ الشَّمس قد غَرَبتْ في الماءِ، وامْتَنعَ ذلك لأنَّ الشمسَ أعظمُ من الدُّنيا. انتهى.

وأما الفلَكُ الذي هي فيهِ فاختلَفوا فيه:

فقال الفلَكيُّون: إنَّه الفلَكُ الرَّابعُ، ويَصِلُ شعاعُها إلى العالَمِ السفليِّ لأنَّ أجرامَ السَّماواتِ دقيقةٌ فلا تَحجُبُ وصولَ النُّورِ، بخلافِ ما إذا قابَلها حجابٌ كثيفٌ كالغيمِ ونحوِه.

وذكَر بعضُهم: أنَّ وجهَها نحوَ السماءِ وظهرَها نحوَ الأرضِ، ولولا ذلك لاحْتَرقَتِ الأرض.

وقال بعضهم: إنَّها تجري والكواكبَ في البحرِ الذي دونَ السماءِ بقَدْرِ ثلاثةِ فراسخَ، وهو موجٌ مكفوفٌ قائمٌ في الهواءِ بإذنِ اللهِ تعالى لا يَقْطُر منه قَطرةٌ، والبحارُ كلُّها ساكنةٌ، وذلك البحرُ جارٍ في سرعةِ السهمِ كأنه حَبْلٌ ممدودٌ بينَ المشرقِ والمغربِ، فتَجْرِي الشمسُ والقمرُ والخُنَّسُ في ذلك البحرِ، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، وفي الحديثِ: «والذي نفسُ محمدٍ بيدِه، لو بدَتِ الشمسُ من ذلكَ البحرِ لاحتَرقَتِ الأرضُ، ولو بَدَا القمرُ منه لافتُتِنَ أهلُ الأرضِ حتى يعبدُوه مِن دونِ اللهِ إلَّا مَن شاءَ اللهُ»(١).

وأمَّا مستقرُّها: فقد اختلَف العلماءُ في قولِه تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ [يس: ٣٨]:

---

(١) قطعة من خبر ابن عباس الطويل عند الطبري في «التاريخ» (١/ ٤٧ ـ ٥٢) وأبي الشيخ في «العظمة» (٤/ ١١٦٣ ـ ١١٦٨) وقد سلف تخريجه والكلام عليه قريباً، وما تقدم من قوله: «إنها تجري والكواكب...» مأخوذ منه أيضاً.

فقيل: مستقَرُّها مَغْرِبُها.

وقيل: مستقَرُّها انقضاءُ سَيْرِها، وذلك يكونُ يومَ القيامة.

وقيل: مستقَرُّها نهايةُ ارتفاعِها في الصَّيفِ في السَّماء، ونهايةُ انخفاضِها في الشِّتاء.

وقيل: مستقَرُّها آخِرُ مَطَالعِها في المتقلِّبينِ، فإذا استقرَّ وصولُها كرَّتْ راجعةً، وإلَّا فهي لا تَستقِرُّ في حِزْبها طرفةَ عينٍ.

ونقَل المفسِّرونَ عن ابنِ عباسٍ وغيرِه أنه قرأ: (لا مُسْتقَرَّ لها)، وكذلك في قراءةِ ابنِ مسعودٍ.

قال الثعلبيُّ: أي: لا قرارَ لها فهي جاريةٌ أبداً[١].

[فرأى][٢] ابنُ عبَّاسٍ أنَّ الشمسَ بمنزلةِ الساقيَّةِ تَجري بالنَّهارِ في السَّماء في فلَكِها، فإذا غَربَتْ جَرَتْ في اللَّيلِ تحتَ الأرضِ في فلَكِها حتى تَطْلُعَ من مشارِقِها، وكذلك القمر[٣].

وقيل: مستقَرُّها تحتَ العرشِ.

قُلتُ: وهذا هو الصَّوابُ إنْ شاء اللهُ تعالى؛ لِمَا في «البخاريِّ» عن أبي ذرٍّ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ قال: «مستقَرُّها تحتَ العرشِ»[٤].

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٢٨).

(٢) ما بين معكوفتين وقع مكانه بياض في (ز)، ولعل المثبت هو المناسب لسياق الكلام.

(٣) كذا قال، وفيه نظر، فإن ما قاله الحبر يكفي أن نقول فيه: إنه يتفق وقوله تعالى: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠] ولا حاجة فيه لكل ذاك الإغراب.

(٤) رواه البخاري (٤٨٠٣)، ومسلم (١٥٩/ ٢٥١).

وفي روايةٍ أُخرى للبخاريِّ عن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ يوماً حينَ غربتِ الشمسُ: «أتَدْرِي أين تذهبُ؟» قال: اللهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «فإنَّها تَذْهَبُ حتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العرشِ، فتسْتَأْذِنَ فيُؤْذَنُ لها، ويُوشِكُ أنْ تَسْجُدَ فلا يُقْبَلَ منها، وَتَسْتَأْذِنَ فلا يُؤْذَنَ لها، فيُقَالُ لها: ارْجِعِي مِن حيثُ جِئْتِ، فتَطْلُعُ مِن مَغْرِبِها»[1]، وقد تكلَّمْتُ على ذلك في «بهجة الناظرين».

فائدة: قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] قال الثعلبيُّ: إنَّ اللهَ تعالى خَلَق للشمسِ ثلاثَ مئةٍ وستِّينَ كُوَّةً في المَشْرق، وثلاثَ مئةٍ وستِّين كُوَّةً في المغربِ، على عدَدِ أيَّامِ السَّنةِ، تَطْلُع كلَّ يومٍ مِن كوَّةٍ منها، وتَغرُبُ في كوَّةٍ منها، فهي المشارِقُ والمغارِب.

وقال ابنُ عباسٍ: إنَّ الشمسَ تَطْلُعُ كلَّ سنةٍ في ثلاثِ مئةٍ وستِّين كوَّةً لا تَرجِعُ إلى تلك الكوَّةِ إلَّا لمِثْلِ ذلك اليومِ من العامِ المقْبِلِ، ولا تَطْلُعُ إلا وهي كارهةٌ، فتقولُ: يا ربِّ! لا تُطْلِعْني على عبادِكَ فإنِّي أراهُم يَعْصُونَكَ[2].

فاعْلَمْ أنَّ في حركةِ الشَّمسِ منافعَ للعِبَادِ؛ لأنَّها لو وَقَفتْ في موضِعٍ لاشتَدَّ الحرُّ في ذلك الموضعِ واشتَدَّ البردُ في ذلك المواضع[3]، لكنَّها تسيرُ مِن المشرقِ إلى المغربِ فتأتي أقطارَ الأرضِ، فيَحصلُ النَّفْعُ بمرورِها على الأرض، وأمَّا حركتُها في المنازِلِ والبروجِ فمقرَّرٌ في الكتبِ التَّنجميَّة.

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩/ ٢٥٠).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٨/ ١٣٩).

(٣) قوله: «واشتد البرد في ذلك المواضع»، كذا وقعت العبارة في (ز)، ولعل الصواب: (واشتد البرد في مقابل ذلك الموضع).

لطيفةٌ: من العربِ مَن يفضِّلُ القمرَ على الشَّمسِ، ويقولُ: القمرُ مذكَّرٌ والشمسُ مؤنَّثةٌ، والمذكَّرُ أفضلُ من المؤنَّثِ، ومنهُم مَن يفضِّلُ الشمسَّ على القمرِ، ويَحتجُّ بأنَّ اللهَ قدَّم ذِكْرَ الشمسِ على القمرِ فقال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ﴾، ومِن العربِ مَن لا يفضِّلُ أحدَهما على الآخرِ.

قال بعضُهم: والأولُ الأصَحُّ من وجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ التذكيرَ أصلٌ والتأنيثَ فرعٌ.

والثَّاني: أنَّ التمسُّك بمجرَّدِ التقديمِ في الذِّكر ضعيفٌ، فقد يتقدَّمُ المشروفُ ويتأخَّرُ الأَشرفُ، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] وقال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥].

قلتُ: إنْ أُرِيدَ التَّفضيلُ بينَهُما بحسَبِ ما عندَ اللهِ فذلك غيرُ معقولٍ لنا؛ لأنَّه يُحتاجُ فيه لتوقيفٍ، وإنْ كانَ بحسَبِ الضِّياءِ والنُّورِ ومزيدِ الإشراقِ فلا شكَّ أنَّ الشمسَ أفضلُ بهذا الاعتبارِ؛ لأنها باقيةٌ على نورِها بخلافِ القمرِ فقد نَقَص مِن نورِه كما سيأتي.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ، وقد مرَّ حديثُ ابنِ عبَّاسٍ في الشَّمسِ، وتتمَّتُه: «فلو تَرَكَ الشمسَ والقمرَ كما خلقَهما لم يُعْرَفِ الليلُ من النَّهار، ولا كان يَدْرِي الأجيرُ إلى متى يَعْملُ، ولا الصائمُ متى يصومُ، ولا المصلِّي متى يُصلِّي، ولا المطلَّقةُ كم تَعْتَدُّ، ولا أوقاتُ الصلاةِ، ولا وقتُ الحجِّ، ومتَى تَحِلُّ الدُّيونُ ويَبْذرُون ويَزْرَعون، ومتى تكونُ الرَّاحةُ لأبدانِهم، فكانَ اللهُ أَنْظَرَ لعبادِه وأرحمَ بهم، فأرسلَ

جبريلَ عليه السَّلامُ فأمرَّ جناحَهُ على وجهِ القمرِ ـ وهو يومئذٍ شمسٌ ـ ثلاثَ مرَّاتٍ، فطَمَس عنه الضوءَ وبقيَ فيه النورُ، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] فالسَّوادُ الذي في وجهِ القمرِ يُشبِهُ الخطوطَ أثرُ المحوِ»(١).

وسُئلَ عليٌّ رضي الله تعالى عنه عن السَّوادِ الذي في القمرِ فقال: ذلكَ آيةُ اللَّيلِ مُحِيَتْ، فذلك أثرُ المحوِ(٢).

قلتُ: حيثُ كان القمرُ في الأصلِ شمساً فكانَ القياسُ أنْ يكونَ له حرٌّ كالشَّمس، وحيث طُمسَ فكان القياسُ أنْ يَنقُصَ مِن حرِّه بقَدْرِ ما نقَص من نُورِه، وهو لا حرَّ له أصلاً، فلعلَّه خُلِقَ ابتداءً بلا حرٍّ، إنَّ في ذلكَ لعِبرةً، أو ذهَبَ حرُّه كلُّه مع الطَّمْس، فتأمَّلْ، والظاهرُ الأول.

وفي «قانون ابنِ العربيِّ» أنَّه قيل: إنَّ القمرَ نورٌ شفَّافٌ قابلٌ لنورِ الشَّمسِ يَسْتمِدُّ منه، فإذا قرُبَ منه ضعُفَ نورُ استمدادِه، وإذا تعدَّى عنها قَوِيَ نورُه، فكلَّما بَعُدَ عنها قَوِيَ نورُه، حتى إذا قابلَها وهو أبعدُ ما يكونُ بينهُما فيكونُ القمرُ أكثرَ ضوءاً، ثم يَقرُبُ من الشمس، فكلَّما قرُبَ منها نَقَصَ ضَوؤُه، وأمَّا الفلَكُ الذي هو فيهِ فهو فلَكُ سماءِ الدُّنيا.

وقيل: في البحرِ دونَ سماءِ الدُّنيا بناءً على ما تقدم.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]؛ أي: قدَّرْنا له منازلَ، وهي ثمانيةٌ وعشرون منزلاً، وهي مواقِعُ النُّجومِ التي تَنْسِبُ العربُ إليها الأنواءَ، وهي:

---

(١) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٨٨)، وتقدم تخريجه والكلام عليه قريباً.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٤٩).

الشَّرَطانِ، البُطَينُ، الثُّرَيَّا، الدَّبَرانِ، الهَقْعَةُ، الهَنْعَةُ، الذِّراعُ، النَّثْرَةُ، الطَّرْفُ، الجَبْهَةُ، الزُّبْرَةُ، الصَّرْفَةُ، العَوَّاءُ، السِّماكُ، الغَفْرُ، الزُّبانَى، الإكليلُ، القَلْبُ، الشَّوْلَةُ، النَّعائِمُ، البَلْدَةُ، سَعدٌ الذَّابِحُ، سَعْدُ بُلَعَ، سَعْدُ السُّعودِ، سَعْدُ الأخبِيَةِ، فَرْغُ الدَّلْوِ المقدَّمِ، فَرْغُ الدَّلْوِ المؤخَّرِ، الرشَا وهو بَطْنُ الحُوتِ.

وهـذه المنازِلُ مقسـومةٌ علـى البُروجِ، وهـي اثْنا عَشَـر بُرْجاً: الحَمَـلُ، الثَّورُ، الجَوْزاءُ، السَّـرَطانُ، الأَسـدُ، السُّـنْبلةُ، الميزانُ، العقربُ، القَوسُ، الجَـدْيُ، الدَّلْوُ، الحُوتُ.

فيكونُ لكلِّ بُرْجٍ مَنْزِلان وثُلُثٌ، فيَنزِلُ القمرُ كلَّ ليلةٍ منزلاً من الثَّمانيَةِ والعشرينَ، ويَسيرُ سَيراً مِن غيرِ تفاوُتٍ، ويَسْتسِرُّ ليلتَينِ إنْ كانَ الشهرُ تامًّا، وليلةً إنْ كان ناقصاً، فإذا نزَلَ تلك المنازِلَ دَقَّ وتقوَّسَ في رأيِ العينِ وعادَ كالعُرْجونِ القديمِ، وهو العِذْقُ الذي فيه الشَّماريخُ إذا عَتُقَ ويَبِسَ وتَقوَّسَ واصْفرَّ، فشُبِّهَ القمرُ في دِقَّتِهِ وصُفْرتِهِ به.

ثم بيَّن سبحانهُ وتعالى أنَّه خلَقَ الأشياءَ خِلْقةً مُتناسِبةً، وجَعلَ لكلِّ واحدٍ منها حدًّا فلا يتعدَّاه، بقولِهِ: لا الشَّمسُ يَنبغِي لها أنْ تُدرِكَ القمرَ؛ أي: لا يَصلُحُ لها ولا يمكنُ أنْ تُدرِكَه؛ لأنَّ فلَكها غيرُ فلَكِه، ولأنها تَقْطعُ فلَكها في كلِّ سنةٍ مرَّةً، والقمرَ يَقطعُ فلكَه في كلِّ شهرٍ مرَّةً، فلا سبيلَ أنْ تُدرِكَه.

وقـال عكرمـةُ: لـكلِّ واحـدٍ منهُما سـلطانٌ، فسـلطان القمـرِ اللَّيلُ، وسـلطانُ الشـمسِ النهارُ[1].

والمعنَى على هذا: لا يَدخُلُ اللَّيلُ على النَّهارِ قبلَ انْقِضائهِ، ولا النهارُ على

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣/ ١٤٣).

اللَّيلِ قبلَ انقضائهِ، وهذا معنى قولهِ: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ [يس: ٤٠] نَقَلْتُ ذلك كلَّه مِن «تفسيرِ الكَوَاشي».

لطيفةٌ: العربُ تقولُ: القمرُ يَفضَحُ السَّارقَ، ويَهْتِكُ العاشِقَ، ويُبْلِي الثيابَ، ويُنْسِي ذِكْرَ الأحباب، ويُقرِّبُ الدَّينَ، ويُدْني الحَيْنَ[1]، واللهُ أعلمُ.

* * *

فصلٌ

في ذكرِ الكواكِبِ

قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦] وقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٦].

الخنَّس: جمعُ خانسٍ، قيل: هي النُّجومُ الخمسةُ: المرِّيخُ وزُحَلُ وعُطارِدٌ والزُّهَرةُ والمشتري تَخْنُسُ في مَجراها؛ أي: تَرْجعُ، وتَكْنِسُ في أوقاتِ اختفائِها وغروبِها كما تَكْنِسُ الظِّباءُ.

وقيل: هي بقرُ الوحشِ.

وقيل: هي الظِّبَاءُ.

وحكَى مكِّيٌّ أنَّ الكُنَّس سبعةٌ بزيادةِ الشمسِ والقَمرِ[2].

وحكَى الزمخشريُّ قولاً، وهو: أنَّها جميعُ النُّجومِ تَخْنُس بالنَّهارِ فتَغيبُ عن العيونِ، وتَكْنِسُ باللَّيل؛ أي: تَطْلع في أماكنِها كالوَحشِ في كُنسِها[3].

---

(١) الحَين بفتح الحاء: الهلاك. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: حين).

(٢) انظر: «الهداية» لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٠٨٩).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٧١١).

فائدة: ثبتَ في التَّواريخِ والتَّفاسيرِ أنَّ الكواكبَ خُلِقتْ حين خُلِقتِ السماواتُ يومَ الخميسِ ويومَ الجمعةِ، وفي «مسالِك البَكْريِّ»[١]: أنَّ جُرْمَ عُطارِدٍ جزءٌ من اثنينِ وعشرينَ جزءاً من جُرمِ الأرض، وجُرمَ الزُّهَرةِ جزءٌ من أربعةٍ وعشرينَ جزءاً من الأرضِ، وجُرْمَ المشترِي مِثْلُ جُرْمِ الأرضِ أحداً وثمانين مرَّةً ونصفاً[٢] بالتَّقريب، وجُرْمَ زُحَلَ مِثْلُ جُرْمِ الأرضِ تسعةً وسبعينَ مرةً ونصفاً[٣] بالتقريب.

وقال الغزاليُّ في (باب التَّفكُّرِ) من «الإحياء»: الكواكبُ التي نَراها أصغرُها مثلُ الأرضِ ثلاثَ مرَّاتٍ، وأكبرُها ينتهِي إلى مئةٍ وعشرينَ مرةً مِثْلَ الأرضِ[٤].

وللمنجِّمينَ والفلاسفةِ كلامٌ كثيرٌ كلُّه هَذَيانٌ لا يقومُ عليه من الوَحْيِ بُرْهان.

لطيفةٌ: منافعُ النُّجومِ كثيرةٌ؛ منها: إرشادُ الضالِّ، والاهتداءُ، قال اللهُ تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٩٧]، قال قتادةُ: جعَلها الله زينةً ورجوماً للشياطينِ وعلاماتٍ يُهْتَدَى بها، فمَن تَأوَّل فيها غيرَ ذلك فقد أخطأَ حظَّه، وأضاعَ نَصيبَه، وتكلَّفَ ما لا يَعْنيهِ[٥].

ومرادُه بذلكَ الردُّ على مَن يَزعمُ أنها تُمطِرُ وتحرِّكُ الرِّياح، وفي «البخاريِّ» عن الرَّبيعِ مثلُه، وزاد: وما جعَلَ اللهُ في نجمٍ حياةَ أحدٍ ولا رِزْقَه ولا موتَهُ، وإنَّما يَفْتَرون على اللهِ الكذبَ ويتعلَّلُون بالنُّجوم[٦].

---

(١) لم أجده في «المسالك والممالك» لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري.

(٢) في (ز): «ونصف».

(٣) في (ز): «أحد وثمانون مرة ونصف».

(٤) انظر: «الإحياء» (٤/ ٤٤٦).

(٥) علقه البخاري بصيغة الجزم قبل الحديث (٣١٩٩).

(٦) انظر: «جامع الأصول» (٤/ ٣٠)، ولم أجده عند البخاري، وإن كان كلام ابن الأثير يوهم أنه فيه.

وذكَر بعضُهم أنَّ مِن النُّجومِ غارِبةٌ لا تَطلُعُ أبداً، كالكواكبِ الجنوبيَّة، وطالعةٌ لا تَغْربُ أبداً كالكواكبِ الشماليَّة، ومنها ما يَطْلعُ تارةً ويغيبُ أخرى، ومنها سيَّارةٌ من المشرِقِ إلى المغرِبِ، ومنها ثوابِتُ.

ومَن أرادَ الوقوفَ على الكلامِ على اللَّيلِ والنهارِ، والرِّياحِ والمطرِ، والرَّعدِ والملائكةِ، والبيتِ المعمورِ وسِدْرةِ المنتهَى، وغيرِ ذلك، فعليه بكتابنا «بهجةُ الناظِرينَ وآياتُ المستدلِّين»، والله أعلم.

* * *

باب
في ذِكْرِ الأرضِ

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

قال المفسِّرون: ليس في القرآنِ آيةٌ تَدلُّ على أنَّ الأرضينَ سبعٌ إلَّا هذه.

وأمَّا السنَّةُ: ففي «صحيحِ مسلم» عن سعيدِ بنِ زيدٍ أنه ﷺ قال: «مَن اقْتَطَعَ شبراً مِن الأرضِ ظلماً طوَّقه اللهُ إيَّاه من سبعِ أرَضِين»[1].

وفي «صحيح البخاري»: «خُسِفَ به يومَ القيامةِ إلى سَبْعِ أَرَضِين»[2].

وقولُ بعضِهم مِن أنَّ المرادَ به: سبعةُ أقاليمَ، خلافُ الظاهرِ.

إذا علمتَ هذا [فقد روَى][3] ابنُ جريرٍ وابنُ المنذر عن ابنِ مسعودٍ وناسٍ من الصَّحابةِ: أن الله تباركَ وتعالى كان عرشُه على الماءِ، لم يَخلُقْ شيئاً ممَّا خلَق قبلَ الماء، فلمَّا أرادَ أن يخلُقَ الخَلْقَ أخرج من الماءِ دخاناً فارْتَفعَ فوق الماءِ فسَمَا عليه، فسمَّاه سماءً، ثم أَيْبَسَ الماءَ فجعَلَهُ أرضاً واحدةً ثم فَتَقَها فجعَلَها سبعَ أَرَضِينَ في يومينِ: الأحدِ والإثنينِ، فخَلَقَ الأرضَ على حوتٍ، وهو الذي ذكرهُ سبحانه في قوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾، والحوتُ في الماءِ على ظهرِ صفاةٍ، والصَّفاةُ على ظهرِ مَلَكٍ، والملَكُ على صخرةٍ، والصَّخرةُ في الرِّيحِ، وهي التي ذَكَر لقمانُ ليستْ في السَّماءِ

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٨)، ومسلم (١٦١٢)، ولفظ البخاري: «مَنْ أخذ شبراً...».

(٢) رواه البخاري (٢٤٥٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) ما بين معكوفتين وقع مكانه فراغ في (ز) بمقداره.

ولا في الأرضِ، فتحرَّكَ الحوتُ [فاضْطَرَبَ] فتزلزَلَتِ الأرضُ، فأَرْسَى عليها الجبالَ فقرَّتْ، وخَلَق الجبالَ فيها وأقواتَ أهلِها وشجرِها وما يَنبغي لها في يومينِ: الثلاثاءِ والأربعاءِ، ثم استوَى إلى السَّماءِ وهي دخانٌ، وذلك الدُّخانُ من تَنفُّسِ الماءِ حينَ تَنفَّسَ فجعلَها سماءً واحدةً، ثم فَتَقها فجَعَلها سبعَ سماواتٍ في يومِ الخميسِ والجمعةِ، وإنَّما سمِّي يومَ الجمعةِ لأنَّه جُمِع فيه خَلْقُ السماواتِ والأرضِ(١).

[وروَى](٢) ابنُ راهُويَه في «مسنده» وأبو الشَّيخِ والبزَّارُ بسند صحيحٍ عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما بينَ السماءِ والأرضِ مَسِيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ، وكذلك إلى السَّماءِ السابعةِ، والأَرَضُونَ مثلُ ذلك، وما بينَ السماءِ السابعةِ إلى العرشِ مثلُ ذلك»(٣).

---

(١) رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٣٢) وفي «التفسير» (١/ ١٩٤) من طريق أسباط عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني عن عبدالله بن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله.

ورواهابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٧٤) من طريق آخر عن أسباط بن نصر عن السدي قوله.

قلت: وهذا الإسناد من طريق السدي عن الصحابة المذكورين من الأسانيد الكثيرة الدوران في «تفسير الطبري»، علماً أن الطبري نفسه قد ارتاب به، وقال عنه ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم.

قلت: والظاهر أن ما جاء فيه هنا هو من الإسرائيليات، وقد تقدم طرف منه مع الكلام عليه في (باب أوَّلِ المخلوقاتِ واللَّوحِ والقَلَم).

(٢) ما بين معكوفتين وقع مكانه بياض في (ز) بمقداره، وكذا كل ما سيأتي بين معكوفتين.

(٣) رواه ابن راهويه كما في «الدر المنثور» (١/ ١٠٨) والكلام منه، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٠)، والبزار (٢٠٨٧ ـ كشف)، ورواه أيضاً ابن أبي شيبة في «العرش» (١٧)، جميعهم من طريق أبي نصر =

[وروَى] أبو الشَّيخِ عن أبي الدَّرداءِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «كشفُ الأرضِ مسيرةُ خمسِ مئةِ عامٍ، وكشفُ الثَّانيةِ مثلُ ذلك، وما بينَ كلِّ أرضَينِ مِثلُ ذلك»[1].

الثعلبيُّ[2]: قال السُّدِّيُّ: خَلَقَ اللهُ الأرضَ على حُوتٍ، والحوتُ في الماءِ، والماءُ على ظهرِ صَفاةٍ، والصَّفاةُ على ظهرِ مَلَكٍ، والملَكُ على صخرةٍ، والصَّخرةُ على الرِّيح[3].

أيضاً[4]: الأرضُ على ظهرِ النُّونِ، والنُّونُ على بحرٍ، وإنَّ طَرَفي النُّونِ رأسَه وذنَبَه يلتقيانِ تحتَ العرشِ، والبحرُ على صخرةٍ خضراءَ، والصَّخرةُ على ظهرِ ثورٍ، والثَّورُ على الثرى، وما تحتَ الثَّرى لا يَعْلمُه إلَّا اللهُ[5].

= عن أبي ذر رضي الله عنه. قال البزار: لا نَعْلَمُه يُرْوَى عن أبي ذرٍّ إلا بهذا الإسنادِ، وأبو نصرٍ أَحْسبُه حُمَيْد بن هلالٍ، ولم يسمعْ من أبي ذرٍّ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ١٣١): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، إلا أن أبا نصر حميد بن هلال لم يسمع من أبي ذر.

قلت: فالحديث معلول بالانقطاع، ففي إطلاق المؤلف الصحة عليه نظر، لأن هذا الإطلاق يتطلب أن يكون السند متصلاً، وهو هنا ليس كذلك، علماً أن ابن الجوزي رواه في «العلل» (٧) وقال: حديث منكر. وأعله من وجه آخر، وانظر باقي كلامه ثمة.

(١) قوله: «أبو الدرداء» كذا نقله عن «الدر المنثور» (٨/ ٢١١)، والصواب: أبو ذر، كذا رواه أبو الشيخ في «العظمة» (١١) عن أبي ذرٍّ بالإسنادِ السابق، والكلام فيه كالكلام في الذي قبله.

(٢) وقع قبلها فراغ في (ز) بمقدار كلمة أو ثنتين.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٧/ ٣١٤)، وهو قطعة من خبر تقدم قريباً تخريجه والكلام عليه، وهو من خرافات الإسرائيليات.

(٤) وقع قبلها فراغ في (ز) بمقدار كلمة أو ثنتين.

(٥) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٢٣٨)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (٧/ ٤٦١٢)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٦٣)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٦)، جميعهم عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا شك أنه =

قيلَ[١] لعيسى عليه السلام: يا روحَ اللهِ! ما تحتَ هذه الأرضِ؟ قال: بحرٌ من ماءٍ، قيل: فما تحتَ البحرِ؟ قال: أرضٌ، قيل: فما تحتَ الأرضِ؟ قال: بحرٌ من ماءٍ، حتَّى بلَغَ سبعَ أرَضِين وسبعةَ أبحُرٍ، قيل: فما تحتَ هذه الأرضِ السابعةِ؟ قال: صخرةٌ مجوَّفةٌ، قيل: فما تحتَ الصَّخرةِ؟ قال: هي على مَنْكِبِ مَلَكٍ قائمٍ، قيل: فما تحتَ الملَكِ؟ قال: هو على ظهرِ ثورٍ، قيل: فما تحتَ الثَّورِ؟ قال: هو قائمٌ على ظهرِ حُوتٍ قد الْتَقَى طرَفاه تحتَ العرش، قيل: فما تحتَ الحوتِ، قال: الماءُ، قيل: فما تحتَ الماءِ؟ قال: الريح، قيل: فما تحتَ الريحِ؟ قال: هواءٌ وظُلْمةٌ، قيل: فما تحتَ ذلك؟ قال: إلى هنا انْتَهَى عِلْمِي وعلمُ العلماءِ[٢].

[وروَى] أبو الشيخِ عن كعبٍ قال: الأرضونَ السبعُ على صخرةٍ، والصَّخرةُ في كفِّ مَلَكٍ، والملَكُ على جناحِ الحُوتِ، والحوتُ في الماءِ، والماءُ على الرِّيحِ، والريحُ على الهواءِ ريحٌ عقيمٌ[٣]، والله أعلم.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

قال الجمهورُ من المفسِّرين: لمَّا مُدَّتِ الأرضُ بالقُدرةِ الإلهيَّةِ على وجهِ الماءِ أنْ تميدَ فأَلْقَى اللهُ تعالى فيها الجبالَ فأَرْساها بها.

[وروَى] أبو الشَّيخِ عن ابنِ عباسٍ قال: إنَّ الجبالَ لتَفْتخِرُ على الأرضِ لأَنَّها أُثْبِتَتْ بها[٤].

= من الإسرائيليات، ولعله مكذوب على الحبر رضي الله عنه، وكان الأولى بهؤلاء المفسرين وغيرهم ممن أورد أمثال هذه الروايات أن ينزهوا كتبهم عنها.

(١) وقع قبلها فراغ في (ز) بمقدار كلمة أو ثنتين.

(٢) هو كسابقيه من خرافات أهل الكتاب وأباطيلهم.

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٨٤)، وهو كسابقيه من خرافات أهل الكتاب وأباطيلهم.

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٨٠).

[وروَى] ابنُ أبي حاتمٍ وأبو الشَّيخِ عن أنسٍ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لمَّا خلَقَ اللهُ تعالى الأرضَ جَعَلَتْ تميدُ، فخَلَقَ الجبالَ فألقاها عليها فاسْتقرَّتْ، فعَجِبتِ الملائكةُ مِن خَلْقِ الجبالِ فقالت: يا ربِّ! هل مِن خَلْقِكَ أشدُّ من الجبالِ؟ قال: نَعَم، الحديدُ. قالت: فهل مِن خَلْقِكَ أشدُّ من الحديدِ؟ قال: نَعَم، النارُ. قالت: فهل مِن خَلْقِكَ أشدُّ من النَّارِ؟ قال: نَعَم، الماءُ. قالت: فهل مِن خَلْقِكَ أشدُّ من الماءِ؟ قال: نَعَم، الرِّيحُ، قالت: فهل مِن خَلْقِكَ أشدُّ من الرِّيحِ؟ قال: نَعَم، ابنُ آدَمَ، يتصدَّقُ بيمينِه فيُخْفِيها عن شمالِهِ»[(١)].

وقال[(٢)] اللهُ تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

قال المفسِّرون: ﴿قٓ﴾ جبلٌ مُحيطٌ بالأرضِ من زُمرُّدةٍ عليها كَتفُ السَّماء[(٣)].

[وروَى] الثعلبيُّ عن الضَّحاكِ: أن (ق) جبل محيطٌ بالأرضِ من زُمرُّدةٍ خضراءَ، خُضْرةُ السَّماءِ منه، والسماءُ عليه مقبَّبَةٌ، وما أصابَ الناسَ من زمرُّدٍ فممَّا تَساقَطَ من ذلك الجبلِ. ورواهُ أبو الجَوْزاءِ عن ابنِ عبَّاسٍ[(٤)].

[وقال] بعضُ المفسِّرين: إنَّ مِن جبلِ (ق) إلى السَّماءِ مِقدارَ قامةِ رجلٍ، وقال بعضُهم: بل السَّماءُ مُطْبِقةٌ عليه.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١٠٥) و(١٦٥١٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٥٣ و١٣٨٠). ورواه أيضاً الإمام أحمد في «المسند» (١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩) وقال: هذا حديثٌ غريبٌ لا نَعْرفُه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

(٢) وقع قبلها فراغ في (ز) بمقدار كلمة أو ثنتين.

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٨٩) عبد الله بن بريدة، وفي مطبوعه: (عليها كنفا السماء). وذكره الثعلبي في «تفسيره» (٩/ ٩٢) وفي مطبوعه: (عليها كتفا السماء). والمراد والله أعلم: طرفاها، كما هو لفظ القرطبي في «تفسيره» عند أول سورة (ق).

(٤) انظر: «تفسير الثعلبي» (٩/ ٩٢).

[وروَى] ابنُ أبي حاتمٍ وأبو الشَّيخِ عن كعبٍ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] قال: الحجابُ جبلٌ أخضرُ من ياقوتةٍ محيطٌ بالخلائقِ، فمنه خُضرةُ السَّماءِ[١]. «بهجةُ النَّفسِ».

عن ابنِ عباسٍ: أنَّ جبلَ (ق) مِن بعضِ شُعَبِ الصَّخرةِ التي عليها الثَّورُ، وخلَقَ اللهُ تعالى ستَّةَ جبالٍ هي من وراءِ (ق) ليسَتْ على الأرضِ، هي مِن وراءِ الأرضِ بمسيرةِ خمسِ مئةِ عامٍ، وهي مَوْتودةٌ بأطرافِ الأرضِ على الصَّخرةِ، وليس على الصَّخرةِ جبالٌ موتودةٌ غيرُ هذه السِّتةِ، وقافٌ سابعُها، وهذه السِّتَّةُ معتمِدةٌ على قافٍ، ولقافٍ في السَّماءِ سبعُ شُعَبٍ لكلِّ سماءٍ شُعبةٌ منها، فالسماواتُ السَّبعُ مَبْنيَّةٌ عليها[٢].

[وروَى] ابنُ أبي الدُّنيا وأبو الشَّيخِ عن ابنِ عباسٍ قال: خَلَق اللهُ تعالى جبَلاً يقال له: (ق) محيطاً بالأرضِ، وعُروقُه إلى الصَّخرةِ التي عليها الأرضُ، فإذا أرادَ اللهُ تعالى أنْ يزلزلَ قريةً أَمَر ذلك الجبلَ فيُحرِّكُ العِرْقَ الذي يلي تلك القريةَ فيُزَلْزِلُها ويحرِّكُها، فمِن ثَمَّ تحرَّكتِ القريةُ دون القريةِ[٣].

[وروَى] أبو الشَّيخِ عن وَهْبٍ نحوَه[٤].

الحكمةُ[٥] في كونِ الأرضِ ساكنةً حتى تكونَ فراشاً لنا، وأنْ يمكنَ التَّصرُّفُ

---

(١) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٣٩٤).

(٢) لم أقف عليه، وظاهر أنه من خرافات أهل الكتاب.

(٣) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٨٩) وفي إسناده شيخ مبهم.

(٤) رواه أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٨٩).

(٥) وقع قبلها فراغ في (ز) بمقدار كلمتين.

عليها بالبناءِ وغيره، [واختَلف] القدماءُ من الفلاسفةِ وأهلِ الهيئةِ في الموجِبِ لسكونها على أقوالٍ:

[الأول]: لأن الأرضَ لا نهايةَ لها من جهةِ السُّفْل، فلا مهبطَ لها إذَنْ.

قال الفخر: وهذا باطلٌ؛ لتناهي الأجسام(١).

[الثاني]: الموجبُ لسُكونها جَذْبُ الفَلَكِ لها مِن كلِّ الجوانبِ، فليس بعضُ الجوانبِ بأولَى بجَذْبها مِن بعضٍ، فوجَبَ وقوفُها.

ويَبْطلُ بالمدرِ(٢)؛ لأنَّه صغيرٌ، والأصغرُ أسرعُ انْجِذاباً، فكان الواجبُ انجِذابَ الأصغرِ دونَ الأكبرِ.

وقيل: دَفْعُ الفَلَكِ لها مِن كلِّ الجوانب.

وقيل: إنَّ الأرضَ بطبيعتِها تطلُبُ وسَطَ الفَلَكِ، قاله أرسطاطاليسَ وجمهورُ أمثالِه(٣).

ويَبْطلُ بأنَّ الأجسامَ كلَّها متساويةٌ في الحسِّيَّة، فاختصاصُ البعضِ بالصِّفةِ دون البعضِ يَفتقِرُ إلى مخصِّصٍ.

فبطَلَ جميعُ ما قالُوه.

والحقُّ: أنَّ سكونَها بفعلِ الواحدِ القهَّارِ، والعقلُ لا يَقطعُ على جميعِ حِكَمِ الله تعالى في مخلوقاتِه؛ لحصولِ العجزِ، واللهُ سبحانهُ أعلمُ.

لطيفةٌ: اختَلَفَ العلماءُ في الأرضِ: هل هي كُرةٌ أو بسيطةٌ؟

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٢/ ٣٣٦)، وهذا البحث منقول منه بشيء من التصرف والاختصار.

(٢) في «تفسير الرازي»: (الذرة) مكان (المدر).

(٣) في «تفسير الرازي»: (وجمهور أتباعه).

فذهَبَ ابنُ عبَّاسٍ وجمعٌ كثيرٌ من أهلِ العلمِ إلى أنَّها بسيطةٌ؛ أي: مبسوطةٌ مستويَةُ السَّطحِ في الأربعِ جِهَاتٍ.

وذهب بعضُهم إلى أنَّها كرةٌ، وبه قال أهلُ التعديلِ والفلاسفةُ وجماعةٌ من أهلِ السُّنَّةِ كالفخرِ وغيرِه(١)، ففي «خَرِيدة العجائبِ» عن الأرض: قال بعضُهم: إنَّها كهيئةِ المائدة، وقال بعضُهم: إنَّها كهيئةِ الطَّبلِ، وقال بعضُهم: إنَّها تُشبِهُ نصفَ الكرةِ كهيئةِ القُبَّةِ، وإنَّ السماءَ مركَّبةٌ على أطرافِها.

والذي عليه الجمهورُ: أنَّ الأرضَ مستديرةٌ كالكرةِ، وأنَّ السماءَ محيطةٌ بها مِن كلِّ جانبٍ إحاطةَ البيضةِ بالـمُحَّةِ، فالصُّفرةُ بمنزلةِ الأرضِ، وبياضُها بمنزلةِ الماءِ، وجِلْدُها بمنزلةِ السَّماء، غيرَ أنَّ خَلْقَها ليس فيهِ استطالةٌ كاستِطالةِ البيضةِ، بل هي مُستدِيرةٌ كاستدارةِ الكرةِ المستويَةِ الخَرْط، حتى قال مهندِسُوهم: لو حُفِر في الوَهمِ وجهُ الأرضِ لأدَّى إلى الوجهِ الآخَرِ، ولو ثُقِبَ مثلاً بأرضِ الأندلسِ لنَفَذ الثَّقبُ بأرضِ الصِّين، انتهَى كلامُه في «الخَريدة»(٢).

قلتُ: ولكلٍّ من الفريقينِ حجَّةٌ، فاحتَجَّ القائلونَ بأنَّ الأرضَ بسيطةٌ بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩]، وبقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]؛ أي: بسَطَها، قالهُ ابنُ عباسٍ وغيرُه.

وعن ابنِ عمرَ وابنِ عباسٍ: خلَقَ اللهُ الكعبةَ ووضَعَها على الماءِ على أربعةِ أركانٍ قبلَ أنْ يخلقَ الدنيا بألْفي عامٍ، ثم دُحِيَتِ الأرضُ من تحتِ البيتِ.

واحتَجَّ أهلُ القولِ الثَّاني بوجوهٍ عقليَّةٍ قرَّرها الفخرُ في تفسيرِ قولِهِ

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٤/ ١٦٤).

(٢) انظر: «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» (ص٤٠). وهو لسراج الدين، أبي حفص، عمر بن المظفر بن الوردي، البكري القرشي، المعري ثم الحلبي المتوفى سنة (٨٥٢هـ).

تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ، قال: وإنْ قالوا: قولُه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [ق: ٧] ينفي كونَها كرةً، قُلْنا: لا نسلِّمُ؛ لأنَّ الأرضَ جسمٌ عظيمٌ، والكُرةُ إذا كانَتْ في غايةِ الكِبَر كانت كلُّ قطعةٍ منها تشاهَدُ كالسَّطحِ، والتَّفاوُتُ بينَها لا يحصُلُ إلا في عِلْم اللهِ تعالى[1].

قال بعضُهم: وفي كلامِ الفخرِ نظرٌ؛ لأنَّ ابنَ عباسٍ وغيرَه من السَّلَف أعلمُ بالبيانِ من غيرِهم، واللهُ سبحانهُ وتعالى أعلمُ.

***

فصلٌ

في مقدارِ سَعَةِ الأرضِ

ذكر الإمامُ فخرُ الدِّينِ أنَّ طولَ الأرضِ ما بينَ المشرِقِ والمغرِبِ وعرضَها ما بينَ الشَّمالِ والجنوبِ؛ لأنَّ الذي جهتُه مطلعُ سُهيلٍ يُسمَّى جنوباً والمقابِلُ له يُسمَّى شَمالاً، والمشرقُ والمغربُ معلومان[2].

إذا عَلِمْتَ هذا فقد اختَلفَ أهلُ الهيئةِ والفلاسفةُ في مقدارِ الأرضِ، ففي «المسالِكِ الكبرى»: أنَّ الأرضَ كلَّها خمسُ مئةِ عامٍ: ثلثٌ عمرانٌ، وثلثٌ بحارٌ، وثلثٌ بَرارٍ[3] غيرُ مسكونةٍ.

وأخرج أبو الشيخِ عن حسَّان بنِ عطيَّة قال: بَلَغني أنَّ مسيرةَ الأرضِ خمسُ مئةِ سنةٍ، محورُها منها مَسيرةُ ثلاثِ مئةِ سنةٍ.

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (١٩/ ٥ و١٣١).

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٤/ ١٦٤).

(٣) في (ز): «براري»، والصواب المثبت.

وعن مكحولٍ: مسيرةُ ما بينَ أَقْصى الدُّنيا إلى أَدْناها مسيرةُ خمسِ مئةِ سنةٍ: مئتانِ من ذلك في البحرِ، ومئتانِ ليس يسكنُها أحد، وثمانون فيه يأجوجُ ومأجوجُ، وعشرون فيه سائرُ الخَلْق.

وفي «تفسير الفَخْر» يقال: إنَّ ثلاثةَ أرباعِ كرةِ الأرضِ ماءٌ، وإنَّ الموضعَ الذي طولُه تسعونَ درجةً على خطِّ الاستِواءِ يُسمَّى قبَّةَ الأرض(١).

وفي «عُيون الأخبارِ» لابنِ قُتيبةَ: الدُّنيا كلُّها ـ أي: المعمورُ منها ـ أربعةٌ وعشرونَ ألفَ فرسَخٍ، اثنا عَشَرَ ألفاً للسودان، وثمانيةُ آلافٍ للرُّوم، وثلاثةُ آلافٍ لفارِسَ، وألفٌ للعَرَبِ(٢).

وقال قتادةُ: الأرضُ المعمورةُ أربعةٌ وعشرونَ ألفَ فرسَخٍ، اثنا عَشَر ألفاً للسِّندِ والهندِ، وثمانيةُ آلافٍ ليأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةُ آلافٍ للرُّومِ، وألفٌ للعربِ(٣). كذا في «بهجة النَّفْس».

وقال بعضُ المؤرِّخين: اتَّفَقَ الفلاسفةُ وكلُّ مَن عُني بمساحةِ الأرضِ أنَّ تكسيرَ الأرضِ اثنانِ وعشرونَ ألفَ فرسخٍ، وحَكَى البَكريُّ عن أبي عُبيدٍ أنَّه حكَى اتِّفاقَهُم على أنَّ طولَ عمرانِ الأرضِ ثلاثةَ عَشَرَ ألفَ مِيلٍ وخمسُ مئةِ مِيلٍ، وذلك من أَقْصَى الجزائرِ السِّتِّ التي بالبحرِ المسمَّى: أوقيانس، وهو البحرُ المحيطُ الذي لا يُعلَمُ ما وراءَه غرباً إلى أقصَى عمرانِ الصِّينِ شرقاً.

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٤/ ١٦٣).

(٢) انظر: «عيون الأخبار» (١/ ٣١٥).

(٣) رواه ابن قتيبة في «عيون الأخبار» (١/ ٣١٥)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٧٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١٠٣) و(١٤٧٠٤)، والدينوري في «المجالسة» (٨٠٣)، جميعهم من طريق قتادة عن أبي الجلد.

قال الإمامُ الفخرُ: اتَّفقُوا على أنْ جَعَلوا ابتداءَ العِمارةِ من الغَربِ، إلا أنَّهم اختلفوا في التَّعيين، فبعضُهم يأخذُه من ساحلِ البحرِ المحيطِ، وهو بحر أوقيانوس، وبعضُهم يأخذُه من جزائرَ واغلةٍ وهي التي تسمَّى: الخالدات، زعَم الأوائلُ أنها كانت عامرةً في قديمِ الدَّهر.

قال الفخرُ: إنَّ بعضَ هذه الجزائرِ عشرُ جزائرَ.

قال: فيَلْزمُ على هذا وقوعُ الاختلافِ في الانْتِهاءِ أيضاً[1].

وأما مقدارُ سعةِ الأرضِ بالمراحل ففي «الخريدة»: أنَّ مِن مصرَ إلى أقصى المغربِ نحوُ مئةٍ وثمانين مرحلةً، وإذا قُطِعتْ من القُلْزُم شرقيَّ مصرَ إلى حدِّ الصِّينِ على خطٍّ مستقيمٍ كان مقدارُ تلك المسافةِ نحوَ مِئتي مرحلةٍ، فجُملةُ ما بينَ أقصَى المغربِ إلى أقصَى المشرقِ نحوُ أربعِ مئةِ مرحلةٍ، هذا طولُ الأرضِ، وأمَّا عرضُها في حدِّ الشمالِ إلى أقصاها في حدِّ الجنوبِ فمِن ناحيةِ يأجوجَ إلى أرضِ بُلْغارَ وأرضِ الصَّقالِبةِ نحوُ أربعينَ مرحلةً، ومن أرضِ الصَّقالبةِ في بلدِ الرُّومِ إلى الشَّامِ نحوُ ستِّين مرحلةً، ومن أرضِ الشَّامِ إلى مصرَ نحوُ ثلاثينَ مرحلةً، ومنها إلى أَقْصى النوبةِ نحوُ ثمانينَ مرحلةً، حتى تنتهيَ إلى البرِّيَّةِ، فذلك مئتانِ وعَشرةُ مراحلَ كلُّها عامرةٌ، وأمَّا ما بينَ يأجوجَ ومأجوجَ إلى البحرِ المحيطِ وما بينَ برَارِي السُّودانِ إلى البحرِ المحيطِ، فقَفْرٌ خرابٌ ليس فيهِ نباتٌ ولا طيرٌ ولا وحشٌ ولا شيءٌ من المخلوقاتِ، ولا يَعلمُ أحدٌ مسافةَ ما بينَ البرِّيَّتينِ كم هي إلى البحرِ المحيطِ، وذلك لأنَّ سلوكَها غيرُ ممكنٍ لفَرْطِ البَرْدِ الذي يَمنعُ من العِمارةِ والحياةِ في الشَّمالِ وفَرْطِ الحرِّ المانعِ من ذلك في الجنوب، وأمَّا جميعُ ما بينَ الصِّينِ والمغربِ فمَعمورٌ كلُّه، والبحرُ المحيطُ مُحْتفٌّ به كالطَّوقِ[2]، واللهُ تعالى أعلمُ.

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٤/ ١٦٣).

(٢) انظر: «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» (ص٢٩ ـ ٣٢).

فصلٌ

في عددِ الأقاليمِ

مذهبُ الفلكيِّينَ أنَّ الأقاليمَ سبعةٌ، وذكَر بعضُهم أنَّ طولَ كلِّ إقليمٍ من الأقاليمِ تسعُ مئةِ فرسخٍ في مِثْلِها:

فالأوَّلُ: فيه أرضُ بابلَ وخراسانَ وفارسَ والأهوازِ والموصِلِ وأرضِ الجبلِ، وله مِن البروجِ الحمَلُ ومن النُّجومِ المشترِي.

والثاني: السِّندُ والهندُ والسُّودانُ، وله مِن البروجِ الجَدْيُ وزُحَلُ.

والثالثُ: مكةُ والمدينةُ والحجازُ واليمنُ، وله العَقربُ والزُّهَرةُ.

والرابعُ: مصرُ وإفريقيةُ والبَربرُ والأندلسُ، وله الجوزاءُ وعُطاردٌ.

والخامسُ: الشامُ والرومُ والجزيرةُ، وله الدَّلْوُ والقمر.

والسادسُ: التُّركُ والخَزَرُ والدَّيلمُ والصَّقالبةُ، وله السَّرطانُ والمرِّيخُ.

والسابعُ: الدَّيْبُل(١) والصِّينُ، وله الميزان والشمس.

ولأهلِ الهيئةِ وغيرِهم اختلافٌ واضطرابٌ في تعيينِ هذه الأقاليمِ السَّبْعة، وذكَروا أنَّ الإقليمَ الأولَ أطولُ أياماً وأعدلُ ساعاتٍ من الثَّاني، والثاني أعدلُ من الثالثِ، ثم كذلكَ إلى آخِرِها، وإنَّ ما وراءَ السابعِ لا يُسْكَن، ولا يَعيشُ فيه حيوانٌ، ولا يَدخُلُ إذا كانتِ الشَّمسُ في آخِرِ الأبراجِ الشَّماليَّةِ في رأسِ السَّرطان.

وزَعَمتِ الفلاسفةُ أنَّ الشُّموسَ شموسٌ كثيرةٌ، والأقمارَ أقمارٌ كبيرةٌ، ففي كلِّ إقليمٍ شمسٌ وقمر.

---

(١) بفَتْح الدَّال المُهْمَلة وسكون الياءِ التَّحتيَّة وضم الموحَّدة: قَصَبةُ بلادِ السِّنْدِ. انظر: «التاج» (مادة: دبل).

وذَكَر البَكْريُّ في «المسالك»: أنَّ بالمشرقِ مدينةٌ وبالمغربِ أخرى، كلُّ واحدةٍ طولُ اثني عَشَر ألفَ فرسخٍ، ولكلِّ مدينةٍ عشرةُ آلافِ بابٍ يَحرُسُ كلَّ بابٍ في كلِّ ليلةٍ عشرةُ آلافِ رجلٍ لا تلحقُهم النَّوبةُ إلى يومِ القيامةِ، الرجلُ منهم يُعمَّرُ ستَّةَ آلافِ سنةٍ، فما دونَها وهم يأكلونَ ويَشربونَ ويتناكَحُون، والمدينتانِ خارجتانِ من الدُّنيا لا يَرَوْن شمساً ولا قمراً، ولا يَعرِفونَ آدمَ ولا إبليسَ، يَعبدونَ اللهَ ولهم نورٌ يَسْعَون فيه من غيرِ شمسٍ ولا قمرٍ، قال عليه السلام: «مرَّ بي جبريلُ عليهم فآمَنوا بي، فدعَوْتُهم إلى اللهِ فأجابوا، فمُحْسِنُهم مع مُحْسِنِكم ومُسِيئُهم مع مُسيئِكُم»[1].

وحكَى الفخرُ في «تفسيره» عن ابنِ جُريجٍ في المدينة التي عندَ مغربِ الشَّمس أنَّ لها مئتينِ وعشرين ألفَ بابٍ، لولا أصواتُ أهلِها لسَمِع الناسُ وجوبَ الشمسِ حين تَجِب[2].

وذكر المفسِّرون عن أبيِّ بن كعبٍ في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ العالَمِين رهطٌ من الملائكةِ، وهم ثمانيةَ عَشَر ألفَ مَلَكٍ، منهم أربعةُ آلافٍ وخمسُ مئةٍ بالمشرِق، ومِثْلُ ذلك بالمغرب، ومِثْلُ ذلك في الجانبينِ الآخَرين، مع كلِّ مَلَكٍ منهم من الأعوانِ مالم يَعلمْ عدَّتَهم إلا الله، ومن ورائِهم الجهاتُ الأربعُ، أرضٌ

---

(١) قطعة من خبر طويل رواه الطبري في «التاريخ» (١/ ٤٧ ـ ٥٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١١٦٣ ـ ١١٦٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ولا يصح؛ وقد تقدم الكلام عليه في باب ذكرِ الشَّمسِ.

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٢١/ ٤٩٦)، وفيه: (وجبة الشمس حين تغيب)، بدل: (وجوب الشمس حين تجب).

بيضاءُ كالرُّخامِ عرضُها مسيرةُ الشمسِ أربعين يوماً مملوءةٌ ملائكةً يقالُ لهم: الرُّوحانيُّون، لهم زَجَلٌ بالتَّسبيحِ والتهليلِ، لو كُشِفَ عن صوتِ أحدِهم لهلَكَ أهلُ الأرضِ من صوتهِ، فهم العالَمون، منتهاهُم إلى حملةِ العرش(١).

وقيل في ﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ غيرُ ذلك، كما ذكَرْتُه في «بهجةِ الناظِرين»، واللهُ سبحانهُ وتعالى أعلمُ.

***

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١/ ١١١)، وفيه أبو عصمة نوح بن أبي مريم وهو أحد المشهورين بالوضع كما في «الزيادات على الموضوعات» (١/ ٤٦)، وفي «التقريب»: كذبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

خاتمة

اعلَمْ أنَّ في مدَّةِ عمارةِ الأرضِ ومقدارِ عُمرِ هذه الدُّنيا أقوالاً:

فقيل: إنه لا يَعلَمُ مقدارَ عِمَارتها ولا مدةَ عُمرِها إلا اللهُ تعالى. وهو الصَّحيحُ الذي لا شكَّ فيه ولا ريبَ يَعترِيهِ.

وقيل: إنَّ مدَّةَ عمارةِ الأرضِ سبعةُ آلافِ سنةٍ. وهذا قد تبيَّن بطلانُه.

وقيل غيرُ ذلك.

أما أهلُ القولِ الأولِ فقالوا: لم يَرِدْ في ذلك نصٌّ من القرآنِ، ولم يَثْبتْ فيه حديثٌ صحيحٌ عن النبيِّ ﷺ، فالأحسنُ الوقفُ؛ لأنه لا يُعلم إلا بالتَّوقيف.

وأما أهلُ القولِ الثَّاني فهم جماعةٌ؛ منهم ابنُ عباس في روايةِ ابنِ جُبيرٍ عنه[1]،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٧٢٤٠) من طريق يحيى بنِ يعقوبَ أبي طالبٍ، عن حَمَّادِ ابن سليمانَ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ. ويحيى بن يعقوب هذا قال عنه البخاريّ: مُنكر الحديث، وقال ابن حبان: يروي عن الثِّقات الأشياء المقلوبات لا يجوز الاحتجاج به. انظر: «الضعفاء والمتروكون» لابن الجوزي (٣/ ٢٠٥). قلت: فلعله قد وهم هنا كما يدل على ذلك ما رواه ابن إسحاق كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٥٣٨)، ومن طريقه الطبري في «تفسيره» (١/ ٣٨٢)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨١٣) قال: حدثني مولى لزيد بن ثابت، عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، ويهود تقول: إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة...، ومولى زيد بن ثابت هذا اسمه كما في الطبري وابن أبي حاتم: محمد بن أبي محمد، وهو وإن كان مجهولاً إلا أن ما رواه مبين لما جاء في الرواية الأخرى، لأنه لا يعقل أن يقول الحبر بذلك وقد ورد في أكثر من آية أن الساعة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه، وقد قال الآلوسي في «روح المعاني» (٩/ ٥٢٤): عمر الدنيا وأول النشأة الإنسانية ومدة بقائها في هذا العالم وقدر زمان لبثها في البرزخ كل ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى، وجميع ما ورد في هذا الباب أمور ظنية لا سند يعول عليه لأكثرها. اهـ. قلت: بل لجميعها.

وحُكِي عن وَهْبِ بن مُنبِّهٍ، وحكاه المفسِّرون عن اليهود.

وقالتِ الفلاسفةُ: إنَّ تدبيرَ هذا العالَمِ الذي نحن فيه للسُّنبلةِ، فإذا استكْمَلَ العالَمُ قطعَ هذه المسافةِ وقَعَ النَّفادُ والدُّثورُ، ثم عادَ التدبيرُ إلى الميزانِ، فتَجْتمعُ الموادُّ ويَبتدئُ النُّشورُ عَوداً.

قال البكريُّ: وسلطانُ الحَمَل عندهم[1] اثنا عَشَر ألفَ سنةٍ، ثم كذلك على التَّوالي حتى تكونَ قسمةُ الحوتِ ألفَ سنةٍ، فجميعُ ذلك ثمانيةٌ وسبعون ألفَ سنةٍ، فإذا انْصَرَمتْ هذه المدَّةُ انْقَضَى عالَمُ الكونِ والفَساد.

قال: وهذا قولُ هُرْمسَ، وزَعَم أنَّه لم يكُنْ[2] في عالَمِ الحمَلِ والثورِ والجوزاءِ على الأرض حيوانٌ، فلمَّا كان عالَمُ السَّرَطانِ تكوَّنتْ دوابُّ الماءِ وهوامُّ الأرضِ، فلمَّا كان عالَمُ الأَسدِ تكوَّنتِ الدَّوابُّ وذواتُ الأربعِ، فلمَّا كان عالَمُ السُّنبلةِ تولَّدَ الإنسانانِ الأوَّلانِ آدمانُوسُ وحَوَّانوسُ.

وزعَم بعضُهم أنَّ مدَّةَ العالَمِ مقدارَ قَطْعِ الكواكبِ الثانيةِ لبُرجِ الفلَكِ، والكوكبُ منها يَقطعُ البرجَ في ثلاثِ مئةِ سنةٍ، فذلك ستٌّ وثلاثون ألفَ سنةٍ، وهي ألفٌ وعشرون كوكباً.

قلتُ: وما ذهبَ إليه هؤلاء فهو تخيُّلاتٌ فاسدةٌ وتوهُّماتٌ كاذبةٌ لا دليلَ عليه من السُّنَّة والكتابِ، ولا مستنَدَ لهم فيه إلا مجرَّدُ الرأيِ الفاسِدِ المخالِفِ للصواب، وإنَّ مقدارَ عِمارةِ الدنيا وإتيانِ الساعةِ لا يعلمُه إلا ربُّ الأرباب، فوقتُ إتيانِ الساعةِ مبهَمٌ انْفَردَ اللهُ سبحانه بعِلْمه وأخفاهُ عن عبادِه لأنَّه أصلحُ لهم.

---

(١) في (ز): «عنهم» والصواب المثبت. انظر: «روح المعاني» (٩/ ٥٢٣).

(٢) في (ز): «يمكن» والصواب المثبت. انظر: «أخبار الزمان» للمسعودي (ص٣٠)، و«روح المعاني» (٩/ ٥٢٣).

قال الإمامُ الفخرُ: كما أنَّ كِتمانَ وقتِ الموتِ أصلحُ لهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

قال الفخرُ: قال المحقِّقون: السَّببُ في إخفاءِ علمِ الساعةِ عن العِبَادِ: أنَّهم إذا لم يَعْلموا متى تكونُ كانوا على حَذَرٍ منها، فكان ذلك أَدْعَى للطاعةِ وأَزْجرَ عن المعصِيَةِ(١).

فإنْ قلتَ: قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] فكيف يوصَفُ بالاقترابِ ما قد مَضَى قبلَ وقوعهِ ألفٌ فأكثرُ؟

قلتُ: لا يقالُ؛ لأنَّا نقولُ: إنَّ الأجَلَ إذا مَضَى أكثرُه وبَقِيَ أقلُّه حَسُنَ أنْ يقالَ فيه: اقْتربَ الأجلُ، فأَجَلُ الدنيا قد مَضَى أكثرُه وبَقِيَ أقلُّه، ولقُرْبِ قيامِ الساعةِ عندَ اللهِ تعالى جعَلها كغَدٍ، فقال سبحانه: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، ففي «التِّرمذي» وصحَّحه عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بُعِثْتُ أنا والسَّاعةُ كهاتَينِ» وأشار بالسَّبَّابةِ والوُسْطَى. فأَفْضَلَ إحداهُما على الأخرى(٢).

وفي «الصَّحيحينِ» مِن مرفوعِ ابنِ عُمر: «إنَّما أَجلُكم فيمَنْ مَضَى قَبْلَكم مِن

---

(١) انظر: «تفسير الرازي» (١٥/ ٤٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٢٢١٤) وفيه: (فما فضَّل إحداهما...). ورواه دون قوله: (وأشار...) البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١)، وزاد مسلم في رواية: (وضَمَّ السَّبَّابةَ والوُسْطَى)، وفي رواية أخرى: (قال شعبةُ: وسمعتُ قتادةَ يقولُ في قَصَصِه: كفَضْلِ إحداهما على الأخرى، فلا أَدْري أَذَكَره عن أنسٍ أو قاله قتادةُ)، وفي أخرى: (وقَرَنَ شعبةُ بينَ إِصْبعَيْه، المُسبِّحةِ والوُسطى، يَحْكيهِ).

الأممِ مِن صلاةِ العصرِ إلى مغربِ الشَّمسِ»(١)، وفي لفظٍ آخَرَ: «إنَّما بَقاؤُكم فيما سَلَفَ قبلَكم من الأُمَمِ ما بينَ صلاةِ العصرِ إلى غروبِ الشمسِ»(٢).

وقد أَطَلْتُ بـ«بهجة الناظِرين» الكلامَ على هذا وأمثالِه، وعلى ذِكْر أشراطِ الساعةِ الصُّغرَى والكُبرَى، وأَتَيْتُ فيه مِن ذِكرِ أحوالِ العالَمِ ما لا تَحتمِلُه هذه المقدِّمةُ، فراجِعْه تَقَرَّ به عينُكَ.

واللهُ سبحانهُ وتعالى أعلمُ، وعلى رسولِهِ صَلَّى وسَلَّم، وعلى سائرِ إخوانِهِ من النبيِّينَ والمرسَلِين، وعلى آلِ كلٍّ وصَحْبِهِ أجمعين.

قال مؤلِّفُه الفقيرُ الحقيرُ مَرْعيُّ بنُ يوسُفَ المقدسيُّ المجاوِرُ بالأزهرِ: قد فَرَغْتُ مِن جَمْعِ هذه اللَّطيفةِ بالجامعِ الأزهرِ نهارَ الخميسِ بعدَ العصرِ أواخِرَ ربيعِ الأوَّلِ سنةَ ثلاثةٍ وعشرينَ بعدَ الألفِ، وصلَّى اللهُ على سيِّدِنا محمدٍ وآلِهِ وسَلَّمَ.

***

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٩).

(٢) رواه البخاري (٥٥٧). ولم أجد الحديث عند مسلم.